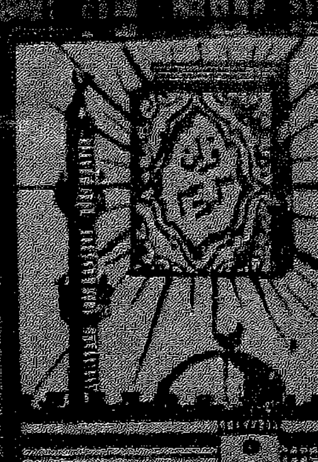
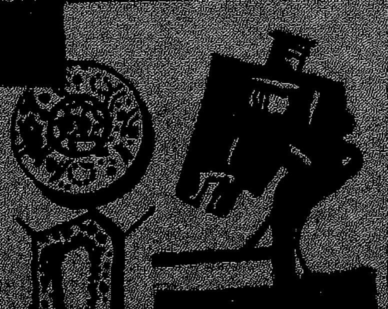
العِلمُ فى رحابِ الله

الأدلة العلمية على وجود الله ووحدانيته









تأليف
حسين عباس الأنصارى

اهداءات ٢٠٠١

أ.د. محمود دياب

جراح بالمستشفى الملكي

العلم في رحاب الله

الأدلة العلمية على وجود الله ووحدانيته

تأليف

حسين عباس الأنصاري

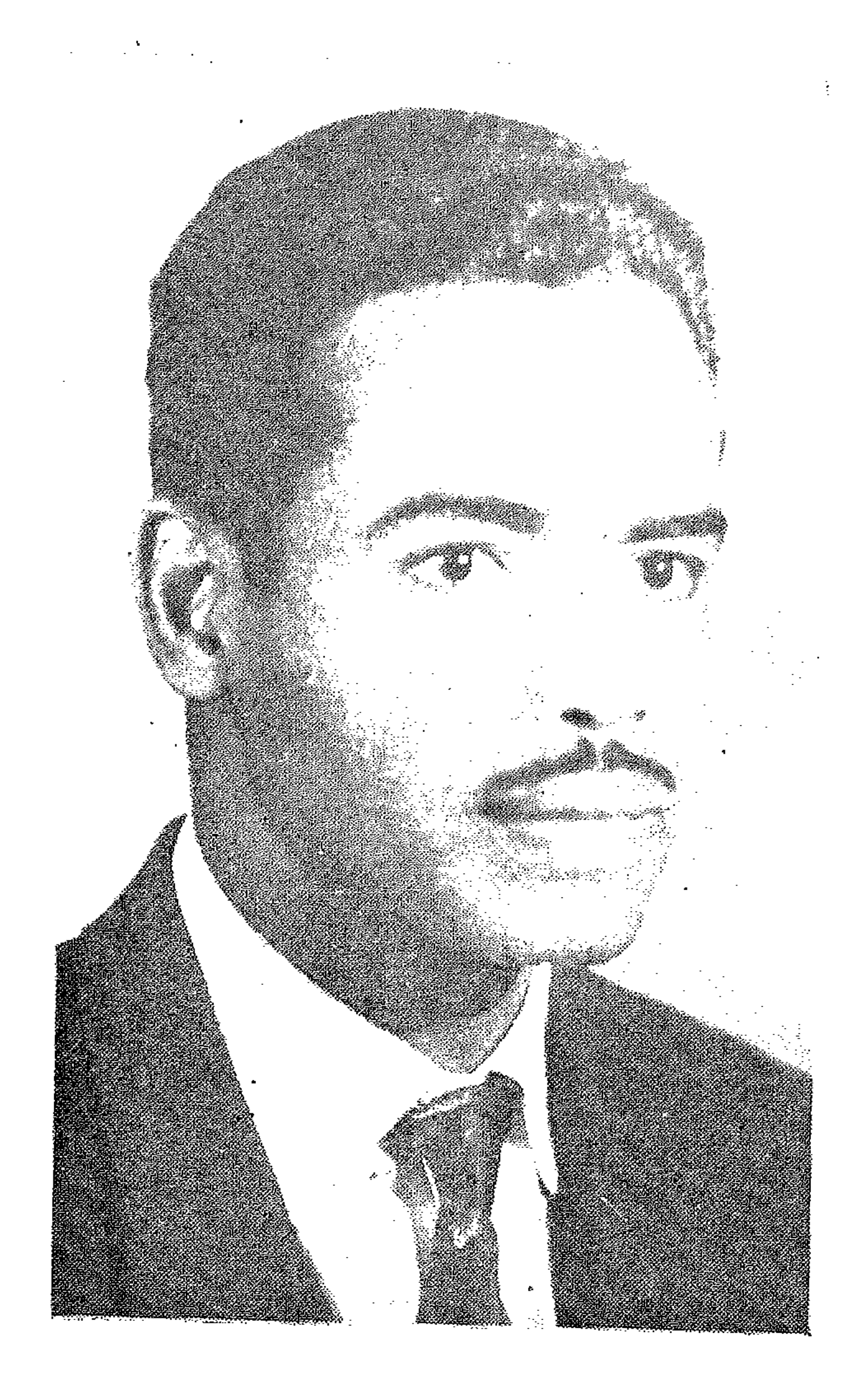
يطلب من مكتبات

الأنجلو المصرية ، دار النهضة العربية

١٦٥ شارع محمد فريد ٣٢ ش عبد الخالق ثروت

بالقاهرة

المطبعة العالمية ١٦ و ١٧ ش ضريح سعد بالقاهرة



المؤلف

اهداء

إلى مثلى الأعلى ، وأستاذى الأول

وصاحب الفضل الأكبر . . . إلى والدى

تصدير

بقلم الدكتور علي محمد مطاوع

عميد كلية طب الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم . والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وإمام المهتدين من جاءنا بالهدى وبالكتاب المبين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . كتاب حوى الوجود كله « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » . « ونزلنا إليك الكتاب تبياناً لكل شىء » .

كتاب يعد بحق المعجزة الخالدة ، فمعجزة كل نبى انتهت بانتهاء وقته . ومعجزة القرآن باقية إلى الأزل « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وفى سفر الخلود — كون الله المكتوب — الإعجاز بكل ماحوت الكلمة من أبعاد . وفى كون الله المنظور تسير فترى الآيات تنطق بوجود الله وتسبح بحمد الله . وإذا كان الأعرابى قديماً قال : « البعرة تدل على البعير » والمتحضر قال : « الصنعة تدل على الصانع » فمالنا لا نستمع لصوت الحق يدوى فى كل مكان : كل ما فى الكون يدل على عظمة الخالق ، « قل سيروا فى الأرض

فانظروا كيف بدأ الخلق » . « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم» . « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

ولقد طاف بنا المؤلف مع مختلف العلوم فى كون الله متنقلا من محيطاته إلى أفلاكه ، ومن ذرات مواده إلى عجائب مخلوقاته ، فلا يسع القارىء بعد الانتهاء من قراءته إلا أن يزداد يقيناً بما يحس به بالفطرة من وجود خالق يحبه ويرعاه سخر له ما فى السماوات وما فى الأرض وإليه مرجعه ومنتهاه .

وإذا كان هذا الكتاب هو باكورة إنتاج المؤلف وهو مايزال على أبواب المعرفة طالباً بالمرحلة الأولى بكلية الطب . فإنى أنتظر منه الكثير كلما توغل فى المعرفة فى مقتبل حياته إن شاء الله .

فسر على بركة الله . سدد الله خطاك . ونفع بك ؟

علي محمد مطاوع

تقريظ

بقلم الدكتور محمد نور الدين

مدرس التشريح ورائد الشباب بكلية طب الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

بذل الكاتب مجهوداً كبيراً فى إعداد هذا الكتاب متناولا قضية وجود الله مبيناً موقف العلم والعلماء منها ، فهو قد تنقل بنا بين المفكرين والفلاسفة القدامى والمعاصرين ، كما أنه تنقل بنا بين علماء الفلك والطبيعة والكيمياء والأحياء ، مخصصاً فصلا لكل علم من هذه العلوم ، وأرانا مدى دلالة هذه العلوم على وجود خالق لهذا الكون وهو الله سبحانه وتعالى ، كما أنه أفرد فصلا خاصاً تناول فيه القرآن الكريم وبين أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من تأليف بشر بل إنه تنزيل من الرحمن الرحيم .

إننى أهنىء الكاتب من كل قلبى وأقدم للأسرة الطبية أديباً جديداً وإن كان بعد ما يزال طالباً ولكن العمل الذى أنتجه أكبر

من أن يقوم به أمثاله وإننى أتعشم أن يكون هذا الكتاب بداية لحياة أدبية وعلمية لهذا الكاتب الناشىء .

ولا يفوتنى أن أهنىء طلاب الكلية جميعاً حيث إن هناك أديباً قد خرج من بينهم والأطباء الأدباء قلة وأرجو أن يزدادوا على مر الأيام . كما أننى أقدم للشباب واحداً منهم كرمز للكفاح عسى أن يقتدوا به ويكافحوا الرفعة شأن وطننا وأمتنا .

حفظ الله رائدنا وزعيمنا جمال عبد الناصر الذى فتح الطريق أمام الشباب والذى يحمل لواء الجهد والكفاح لإسعاد أمتنا . وإننا نعاهده على أن نسير وراءه متكاتفين فى طريق الاشتراكية .

والله ولى التوفيق ؟

محمد نور الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الأستاذ محي الدين الألوائي

المدرس بجامعة الأزهر

« العلم فى رحاب الله » . . . . هذا لون جديد من البحث لم تعهده المكتبة العربية إلا قليلا . وهذا الكتاب الذى يضعه المؤلف المجتهد الناشىء الأستاذ حسين عباس الأنصارى ، أمام القارىء العربى صغير حجمه ، كبير نفعه .

فإنه يضع تحت أعين أولئك الباحثين الذين يثقون بصدق القوانين الفطرية وينظرون إلى حقائق الأشياء بعقول متدبرة وقلوب واعية وأفهام سليمة ، حديقة وارفة الظلال من شجرة « الفكر الباسقة ذات الأغصان « السبعة » من « فصوله » — حتى يتنقل القارىء بين ربوعها ويقتطف من ثمارها . فما أرفع همة هذا المؤلف الشاب ! وما أحسن صنيعه ! مع صغر سنه وقصر

باعه فى هذا المضمار ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ! وأثناء قراءتى السريعة لمسودة هذا الكتاب خطر ببالى أنه من المناسب الإشارة إلى بعض الدعائم الرئيسية التى قامت عليها الدعـــوة الإسلامية والتى هى مدار العزة ومحور التقدم فى نظر الإسلام :

أولا : إن المبدأ الأول الذى قامت عليه الدعوة الإسلامية هو صقل العقول الإنسانية بصقال الإيمان بوجود صانع لهـذا الكون وتوحيد هذا الصانع الخالق العالم بجميع الأمور فلا يجرى أمر فى هذا الكون إلا بمشيئته وإرادته وهو علام الغيوب ، كذلك بتطهيرها من أدران الخرافات والخزعبلات ونبذ كل ظن فى إنسان ، أو أى مخلوق آخر — علوياً كان أم سفلياً — بأن يكون له أثر فى الكون من نفع أو ضر .

ثانياً : إن الإسلام حفز إلى العلم والنظر والبحث ، وحث العقول على التفكر والتدبر ، والاختراع والاكتشاف .

ثالثاً : إننا نجد فى القرآن الكريم آيات كثيرة أشارت إلى السنن الكونية والنواميس الطبيعية التى قررتها النظريات العلمية الحديثة فى الخلق وبدء الحياة والأجرام السماوية ، وكل هذا دليل ساطع على أن الإسلام لا ينافى البحث العلمى والابتكار بل إنه يدفع الإنسانية إلى ذلك ويقرها على إنجازاتها .

رابعاً : إن كثيراً من المشتغلين بالطب الحديث قد قرروا بطريقة علمية ما جاء به الإسلام من تحريم بعض الأشياء كالميتة والدم ولحم الخنزير وغيرها ، واعترفوا بالحكمة من هذا التحريم التي تتفق تماماً مع النظريات العلمية الدقيقة .

ولاشك في أن هذا الكتاب يقوم بالقارىء بتطواف سريع حول هذه النقط الحساسة في الدعوة القرآنية ، ويرسل شعاعاً على النتائج الثابتة التي توصل إليها الباحثون في مختلف شعب العلوم في عصر الحديث .

ولي كل الأمل في أن يحقق مجهود المؤلف هدفه المنشود ، ويضيف لبنة إلى صرح البحث العلمي المثمر .

والله ولي التوفيق ؟

محي الدين الألوائي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله الواحد الأحد ، المنزه عن الكم والكيف ، الذى أحسن كل شىء خلقه وأعطى كل شىء خلقه ثم هدى . بديع السموات والأرض ، المهيمن على كل الوجود بحكمته وقدرته ، الذى إذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون . . . من حارت العقول فى معرفة كنهه ، وقصرت الألباب عن إدراك عظمته ، فراحت تسرّح الطرف فى رحاب هذا الكون الفسيح ، فلم تملك إلا أن ترجع البصر خاسئاً وهو حسير ، وأصابها البهر فى البحث عن حقيقته فلم تستطع غير الإقرار بجلاله وعظمته ، شاهدة ألا إله إلا هو ، الحى القيوم ، العليم الخبير . . . ، الذى خلقها ، فسواها ، فعدلها ، وخلق الوجود كله على أكمل وجه وأتم إبداع .

والصلاة والسلام على من جاء برسالة التوحيد من عند ربه ، نوراً وكتاباً مبيناً ، يهدى به الله من إتبع رضوانه سبل السلام يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه . . . ففتح قلوباً غلفاً ،

وآذاناً صماً ، وأعيناً عمياً ، داعياً إلى البصر والتأمل فى ما فى هذا الكون من دلائل العظمة ، وإبداع الوجود ، الدالة على الخالق الموجود ...

وبعد .

فإن البحث فى الأدلة على وجود الله عن طريق الفكر والنظر ، مع ما فيه من مشقة وصعوبات لهو أحب الأشياء إلى النفوس المتعطشة إلى معرفة الحقيقة العظمى التى تطمئن إليها النفس ، ويركن إليها الفؤاد ، وتجوب فى رحابها أرواح المؤمنين . . .

وقد تشعبت البحوث فى وجود الله ، فقام بعضها على العقل المحض ، وقام بعضها الآخر على العاطفة المجردة ، فأدى هذا وذاك إلى الشطط عن الحقيقة ، والحيدة عن الصواب . . بما تصوره كل من هؤلاء وأولئك من صور للإله خالق هذا الكون ، لا تتفق وذاته سبحانه .

وبين الحين والحين ، يرسل الله رسلا أصفياء من خلقه ، إلى بنى الإنسان يهدونهم الطريق ، ويأخذون بأيديهم إلى شواطىء الأمان ، ويعملون على إزالة الأوهام والخرافات نحو حقيقة الخالق . . إلى أن منّ الله على الإنسانية جمعاء برسالة الإسلام ، رسالة التوحيد والتنزيه ، مؤكدة جوهر جميع الرسالات السماوية

التى سبقتها ، وهو الإيمان بإله واحد . . (قل يا اهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ...) قائمة على العقل والنظر والعاطفة جميعاً .

وقطعت الإنسانية بظهور الإسلام شوطاً كبيراً نحو الرقى العقلى ، والخلقى ، والمادى .

وقام رجال الإسلام بعد أن لحق صاحب الرسالة بالرفيق الأعلى ، بالدعوة إلى الله الواحد الأحد ، فنشروا النور فى أرجاء المعمورة ، وانتشلوا الإنسانية من متاهات الجهل والظلام إلى بر المعرفة والنور.

ثم أصاب المسلمين -- ولا أقول الإسلام — نكسة أغرقتهم فى الفرقة والتناحر . . فذهلوا عن دينهم وعن دعوة الإنسانية إليه . . وبذلك رجعت الانسانية شوطاً كبيراً إلى الوراء حيث سيطرت عليها المادة والأفكار الإلحادية ، فهى لم تخلط فى حقيقة الإله هذه المرة ولكنها لم تعترف بوجود إله مطلقاً ، وإنما معبودها هو المادة والآلة ، فعانت الإنسانيه كثيراً فى سبيل ذلك ..

ثم جاء عصر العلم . عصر الطائرات والصواريخ ، والذرة ، وسفن الفضاء . . . وظن الناس أن مصير الإنسانية بعد تقدم هذه العلوم سيكون هو الإلحاد . ولكن الله الذى يعلم أسرار خلقه ، والذى يجعل لكل زمان معجزة تناسبه ، قد جعل معجزته فى إظهار عظمته لهذا العصر ، هى تقدم دراسة هذه العلوم ، التى وضع القرآن الكريم

الأسس الأولى لها ، ونبه العقول إلى البحث فيها فى إيجاز حكيم - (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ...) .

وقرر النتيجة الحتمية لهذا النظر : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . . .) .

فرأينا علماء المعامل من أكثر الناس إيماناً بالله وأشدهم يقيناً بخالق هذا الكون ومبدعه . . وسنرى ذلك جلياً من خلال صفحات هذا البحث .

وقبل أن أبدأ فى عرض فصول هذا البحث فإننى أود أن أقرر شيئاً . . وهو أننى لما كنت غير متخصص فى دراسة العلوم الطبيعية ودراستها ، حيث إننى ما زلت فى مرحلة الدراسة الأزهرية[1] ، وليست لدى معلومات عن هذه الدراسات غير المعلومات العامة التى استفدتها من خلال قراءاتى لما يتعلق بهذه العلوم ، إذ أننى شغوف بمطالعة هذا النوع من العلوم ، فليس لدى بالطبع تجارب شخصية من الناحية العملية .

ولما كان هدفى من هذا البحث ليس هو سرد المعلومات من غير حقائق أو أدلة ، بل هو إثبات الأدلة العلمية القاطعة على وجود

---

(١) كتب المؤلف مسودة هذا الكتاب قبل أن يلتحق بكلية الطب وقت أنه كان طالباً بالسنة الرابعة الثانوية بمعهد القاهرة الدينى .

الله . لذلك اعتمدت فى هذا البحث على إثبات النتائج للتجارب الشخصية التى توصل إليها العلماء ، كل فى مجال تخصصه ، مزودة بالإحصاءات والمعلومات التى ليس للقارىء غنى عنها . كما أننى عنيت عناية خاصة بإثبات اعترافات العلماء بوجود الخالق ، والأسباب التى أدت بهم إلى الإيمان بوجود الله .

وكان من السهل جداً أن ألخص كلامهم بأسلوبى الخاص ، ولكن الأمانة العلمية تأبى ذلك . كما أننى أعرف مدى تأثير النص الصادر من العالم نفسه فى نفس القارىء ، وخاصة الشباب الذى يتعطش إلى معرفة آراء هؤلاء العلماء فى قضية الإيمان بالله وموقف العلم منها .

وقد قسمت هذا البحث إلى سبعة فصول .

عرضت فى الفصل الأول بعض شبه الملحدين ، والرد عليها ، وبينت أن الملحد إنما هو شخص يكذب على نفسه ، حيث إن الإيمان بوجود إله مهيمن إنما هو شىء فطرى فى نفوس البشر .

ثم جلت فى الفصل الثانى جولة مع بعض المفكرين ، الذين لديهم معرفة بالعلوم الطبيعية عن طريق الدراسة النظرية والتأمل.

مفكرين قدامى ومحدثين ، مسلمين وغير مسلمين ، اختلفت أماكن وجودهم ، وتباينت مصادر ثقافتهم ، واختلفت أزمنتهم ، إلا أنهم جميعاً قد اتفقوا فيما توصلوا إليه وهو الإيمان بالله المنزه عن كل نقص ، الواجب له كل كمال . . .

أما فى الفصل الثالث فقد جلت جولة مع علماء الفلك ، وأثبت الحقائق والقوانين الفلكية التى تنفى استمرار النظام فى هذا الكون بدون إله يوجهها ، كما أثبتُّ سبحات كل عالم فلكى فى رحاب هذا الكون معترفاً بوجود المنظم الواحد . .

وكانت جولتنا فى الفصل الرابع مع الطبيعة وعلمائها ، وقوانينها التى تنفى أزلية هذا الكون المادى ، الذى سيزول حتما ، كما أنه وجد منذ زمن محدود .

كما سجلت كذلك فى هذا الفصل اعترافات علماء الطبيعة بوجود إله يحكم هذا الكون .

أما فى الفصل الخامس فقد جلت جـــولة مع الكيمياء وعلمائها ، وقوانينها التى تنفى وجـود هذا الكون عن طريق المصادفة العمياء .

وسجلت كذلك فى هذا الفصل اعترافات علماء الكيمياء بوجود

الخالق عن طريق مالمسوه فى هذا الـكون من عجائب حيرت العقول ، فلم يملـكوا إلا أن يقروا بوجود الله .

ثم كانت الجولة فى الفصل السادس مع علم الأحياء ، ورأينا فى هذا الفصل عجائب الله فى مخلوقاته الحية . ثم رأينا عجائب إلهام الخالق لمخلوقاته وتوجيهه لها فى سير حياتها . كما سجلنا نتائج العلماء الذين صفت نفوسهم وبهرتهم عظمة الخالق فى مخلوقاته الحية فسجدوا له ، مقرين بوجوده .

ثم كانت جولة الختام فى الفصل السابع مع القرآن ، وقد أثبتنا فى هذا الفصل ، كيف أن القرآن لا يمـكن أن يكون من تأليف بشر ، بل إنه وحى من الله ، وبالتالى فهو يدل على وجود الله .
وبعد . فإن هدفى من هذا البحث هو تقديم شعاع من النور يضىء الطريق للحيارى والتائهين ، الذين تتوق نفوسهم إلى الحقيقة الكبرى ، وخاصة شباب هذا العصر ، الذى طغت عليه الأفـكار المادية ، ليرى كيف أن دراسة العلوم تؤدى إلى الإيمان بالله ، لا إلى الإلحاد كما كان يعتقد ، حيث إن أساطين العلم قد سجدوا لله خاشعين .

والله أسأل أن يكون فى هذه الصفحات مارميت إليه ، وأن ينفع بها من يريد طريق النور ، فإن كنت قدوفقت فلله الحمد أولا وآخراً ، وإن كنت قد جانبت الصواب ، فأساله سبحانه أن يغفر لى ذلتى ، ويكفر خطأى ، ويضع عنى وزرى ، ولا أملك إلا أن أقول : (رب زدنى علماً) .

حسين عباس الأنصارى
١٢ شارع جمال الدين أبو المحاسن

جاردن سيتى فى ٢٨ من شعبان ١٣٨٦ هـ
الموافق ١١ من ديسمبر ١٩٦٦ م

الفصل الأول

شبه الملحدين

شبه الملحدين

قال قائل : إنا لو سُئلنا يوماً : من هو أكذب الناس على نفسه ؟ لقلنا بدون تردد : هو الرجل الذى يزعم أنه ملحد .

نعم إن أكذب الناس على نفسه هو ذلك الذى يزعم أنه لا يؤمن بالله وأنه لا يقع تحت سيطرة قوة عليا ، لأن التدين فطرى فى طبيعة البشر ، والإحساس بأن هناك قوة عليا تسيطر على الكون وتهيمن عليه إنما هو جزء لا يتجزأ من طبيعة الإنسان ، وقد ملأ هذا الشعور نفس الإنسان منذ أن وجد على ظهر هذه الأرض . فحيناً تخيل أن هذه القوة كامنة فى صورة الشمس التى تنعم على الوجود بالحياة والدفء فعبد الشمس واتخذها له إلهاً ، وأحياناً أخرى تخيل هذه الصورة فى النار التى تطغى فلا يقف فى سبيلها كائن من كان ، فعبد النار واتخذها له إلهاً ، ومرة ثالثة تخيل هذه القوة فى الثعبان ، والبقرة ، والقرد ، والأصنام المصنوعة من الحجارة ، فعبدها على كر الدهور واتخذها له إلهاً .

والنتيجة الأخيرة لكل هذا على تتابع الأيام ومرور الزمن هو أن الإنسان كان يحس دائماً بعجزه ، وأن هناك قوة ما تسيطر

عليه وتقدر له أموره ، بيد أنه كان يشطح فى تصوير حقيقة هذه القوة فيزيغ عن سواء السبيل وينحرف عن طريق الهدى ، حتى يرسل له الله رسولا يأخـــذ بيده إلى جادة الطريق ومنبع النور ومالك الملك . . .

لماذا يلحد الناس :

الذى يجر الناس إلى الإلحاد — على ما أعتقد — أحد أمرين :

١ — إما وصول عقيدة مشوشة خرافية لا تتفق والعقل السليم بما تصور به الإله من صور لا تتفق وحقيقة المعبود ، مما يؤدى إلى النفور كلية من الاعتقاد بهذا الإله ، والوقوع فى براثن الإلحاد .

٢ — إرادة إلى الانطلاق والتحلل من كل قيود الفضيلة ، بما جبلت عليه النفس من الركون إلى الشهوات والاستمراء للملذات العاجلة ، لأن هذا النوع من مدعى الإلحاد يعلم أنه إذا اعترف بالله ، فسوف يعترف بالتالى بالبعث والحساب والعقاب ، وهذا ما يؤرق مضجع نفسه المتشبثة بتراب الأرض ، والتى تريد أن تنال أقصى ما تشتهى من الملذات دون ما رقيب أو حسيب . وحينئذ يستطيع هذا المسكين أن يخدع نفسه ويقول لها : ارتعى وامرحى ، فلا إله ولا حساب ، وما يقوله المتدينون ما هو إلا مجرد هراء ، وإلا ،

ا كان هنالك إله فلماذا لا أراه ! وهو حينما يفعل ذلك فإنه
يزيد على ما تفعله النعامة حينما تدفن رأسها فى الرمال وتقول
فسها ما دمت لا أرى الصياد فإذن ليس هنالك صيادون ، وحتى
فرض أن هنالك صياداً فإنه لن يرنى ما دمت لا أراه ! !

بهذا المنطق السخيف يريد بعض الناس أن يخدع نفسه ويدعى
لإلحاد وينكر وجود الله وهو أجهل من أن يعرف كيف يأ كل
كيف يمشى .

ونحن إذا أمعنا النظر فى شبه الملحدين بالنسبة لوجود الله فسوف
نجدها مجرد مكابرة ومغالطة ليس لها أساس من العقل أو المنطق .

وسوف نرى اضطراب التفكير واضحاً فى شبههم التى
تناقض بعضها البعض الآخر .

ثبات الكون عند هودسون :

يقول هودسن تتل : «كل ما فى الوجود من أول ذرة الهباء
لى عقل الإنسان محكوم بقوانين ثابتة لا تتغير ، وبناء عليه فلا
صانع للوجود»[1] . فهودسن يبنى إلحاده على نظام الكون وإحكامه
وعدم الشذوذ أو الاضطراب فى أجزائه ، فما دام الكون بجميع
ما فيه يسير سيراً ثابتاً ، فلا صانع للكون يشرف عليه ويوجه

(١) دائرة معارف القرن العشرين ص ٨٠٥ مجلد ١ .

حركته ، وإلا لو كان هناك صانع لاختلفت حركات الكواكب من يوم لآخر ، ولولد الإنسان على شكله المعروف يوماً ، مثلا ، بينما يولد فى يوم آخر على شكل كلب ناطق ، أو قرد مفكر ، أو ثور يمسك بالقلم ويكتب ، ويقود الطائرة ، ويحطم الذرة ويصنع الصاروخ !

هذا هو ما يريد أن يقوله لنا الأستاذ « تتل » .

فإذا تركنا هذه الشبهة الإلحادية السخيفة وجدنا شبهة إلحادية أخرى على النقيض من ذلك تماماً .

تباين المخلوقات عند جيبل :

يقول الأستاذ « جيبل » إن الأستاذ فوغت شاهد وجود حيوانات خنثى ، لها أعضاء تناسل الجنسين معاً ، ومع ذلك فلا يستطيع الفرد منها أن يلقح نفسه بنفسه ، فلأى فائدة وجد هذا التركيب ، ويوجد من الحيوانات أنواع كثيرة الإخصاب لو تركت وشأنها لملأت البحار فى مدى سنين قليلة ، وغطت سطح الأرض بطبقة ارتفاعها كارتفاع البيوت ، فلأى حكمة هذا التركيب ؟ »[1].

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ص ٥١١ مجلد ١ .

هذه شبهة أخرى لا تقل سخافة عن سابقتها ، وهى على النقيض منها ، وهذا هو حال الفكر الإلحادى المشوش .

يقول الفيلسوف الكبير محمد فريد وجدى فى رده على هؤلاء المخبولين : « كل هذا فى زعم الأستاذ جيبيل خلل فى الخلق لا حكمة ، وكان يمكن فى رأيه أن يكون الوجود أبدع من هذا بكثير ، كيف ذلك يا ترى ؟ يقول الأستاذ جيبيل : « الطبيعة كان يمكنها أن تكون الجسم الإنسانى بحيث تنفذ منه القنابل دون أن تحدث به ضرراً ، ويقبل ضربات الصوارم بدون أن ينجرح . « ونقول : ما هذا التناقض بين شبهات الماديين ، فبينما الأستاذ جيبيل يبنى إلحاده على النقص الموجود فى الكون عهدنا زميله تتل يقيم إلحاده على نظام الوجود وعلى عدم شذوذ ذرة منه عن ذلك النظام »[1] .

كما أن هناك نظرية أخرى بالنسبة إلى وجود الكون وما فيه ، وهى تدل على عدم سلامة تفكير صاحبها ، بل تدل على خبله .

يقول الأستاذ محمد فريد وجدى : « دونك نظرية أخرى من نظريات الماديين ليست بأقل استحقاقاً للسخرية والاستخفاف من سابقتها : زعم أحد فلاسفة الألمانيين وشايعه غيره أن الصانع لم يوجد فى الماضى ولكنه وجد الآن (كبرت كلمة تخرج من

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ص ٥١١ مجلد ١ .

أفواههم) أى أنه تعالى علواً كبيراً كوّن كل هذه الكائنات على ما هى عليه من إبداع وجمال ونظام وهو غير عالم (معاذ الله) ماذا يعمل وغير مدرك وجود ذاته ، إلى أن توصل إلى خلق الإنسان، وهو أفضل الكائنات وأشرفها ، فأدرك وجود نفسه به ، وصار لها معبوداً ! » [١] .

« ليت شعرى ما معنى أن الصانع كون كل هذه المبدعات وهو غير عالم ماذا يصنع ؟ ما هذه السفسطة ، ماذا يقول حضرته لو قلنا له كما قال العلامة الطائر الصيت « نيوتن » : « هل يعقل أن هذه العين تتكون بدون العلم بنظريات الضوء ، وهل يمكن أن تتكون هذه الآذان بدون العلم بنظريات الصوت . . . ؟

ثم يقول الأستاذ فريد وجدى : « ونقول له نحن هل يمكن أن تعطى لهذه الأعضاء الحيوانية الدقيقة هذه الوظائف المتناسبة بدون الإلمام التام بعلم الفسيولوجيا ؟ وهل يتصور العقل أن تمتع هذه النباتات بشرائط حياتها وتكاثرها وبقائها بدون العلم بحالة الأوساط التى تعيش فيها معرفة كلية ؟ بل هل يتصور أن يهب الإدراك من لا حياة له ولا إدراك . . . ؟ [٢]

---

(١) الحديقة الفكرية فى إثبات الله بالبراهين الطبيعية ص٤٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٣ .

الوسط المناسب والمصادفة :

وإذا تركنا هؤلاء وترهاتهم وجدنا شبهة أخرى تدل على الجهل الكامل . فبعض الملحدين ينسب وجود الكون وما فيه من حيوان ونبات وجماد إلى الوسط المناسب ، أى إنه عندما تهيأ الوسط المناسب لوجود هذه الكائنات وجدت ، فالوسط المناسب على هذا الرأى هو الموجد لهذا الكون وما فيه .

ويدحض الأستاذ فريد وجدى هذه الشبهة فيقول لهؤلاء : « من الذى كون الوسط المناسب الذى صلح لتكوين كل هذه المبدعات التى تقصر عزائم التصورات عن إدراكها ؟ ومن هو الذى متع ذلك الوسط بكل ما يحتاج إليه من النواميس والقواعد؟ ومن هو الذى وفق بين الشرائط الضرورية وناسب بين أفاعيلها لكى تكون مكوناتها منتظمة غير مشوهة ؟ بل من هو الذى أعد تلك الأوساط وهيأها وخالف بينها لتصلح لإيجاد الكائنات المختلفة مع علمك بأن الكرة الأرضية فى مبدأ أمرها كانت كتلة ملتهبة متجانسة فى سائر جهاتها ، هل يعقل أن كل هذه البدائع التكوينية والصنائع المتناهية فى الجمال والدقة تكون نتيجة أوساط أرضية لا فاعل فيها غير الصدفة العمياء ، ما أحرى أصحاب هذا المذهب بأن يحبسوا فى الصحراء حتى يجوعوا فإذا طلبوا الغذاء قيل لهم :

انتظروا حتى يستعد الوسط من نفسه لإنبات القمح لكم ، وحتى يستعد الوسط لتكوين أحجار تصنعون منها طاحوناً ، وحتى يستعد الوسط لتجهيز العجين والنار ، فيأتيكم غذاؤكم عن طريق الصدفة ، بفضل الوسط المناسب ، لأجل أن تقيموا على صحة نظريتكم دليلا مفحماً ! »[١] .

هذه هي بعض أفكار الملحدين التي يبنون عليها إلحادهم ، وهي لا تزيد عن مجرد أفكار سقيمة ، إن دلت على شيء فإنما تدل على تفاهة قائليها ، وتناقضهم ، وهروبهم من الحقيقة التي لا ينكرها العقل المتزن والفكر السليم .

يقول الشيخ محمد الغزالي : « أتعرف ما هو الإلحاد ؟ أن يسفه المرء نفسه ، ويركب رأسه ، ويغمض عينيه عن كل ما حوله ، ثم يصدر الأحكام جزافاً ، لا تخضع لمنطق ولا يربطها فكر سليم »[٢] .

والحقيقة أن الملحد دائماً ضيق الصدر ، مشتت الفكر ، لا يصمد أمام المناقشة الواعية طويلا ، ولا يتحمل الحجة والبرهان يقرعان رأسه كقرع الرصاص المتلاحق .

---

(١) الحديقة الفكرية ص ٤٣ .

(٢) عقيدة المسلم .

وذلك بسبب ضيق الأفق ، وانحراف التفكير ، والتمسك بالاعتقاد الأعمى ...

وصدق الله العظيم (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) سورة البقرة — آية ٧ .

ويقول، جل شأنه فى هؤلاء : (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) سورة الحج - آية — ٨ .

الفصل الثاني

مع الفكر

مع الفكر

فطرة الله :

لا شك فى أن وجود الله سبحانه وتعالى من البدهيات ، إذا ما ظل الإنسان على فطرته السليمة ، دون تشويش ، ودون تعصب أعمى للأفكار السقيمة .

فالطفل أول ما يسأل وهو لا يزال متعثراً فى كلماته . فإنما يسأل عمن خلق هذه القطة اللطيفة ، أو تلك المعزة الوديعة التى تدر عليه اللبن والتى يألفها ويأنس إليها ، أو عن ذلك الأرنب النشط الذى يقفز حواليه فى مرح وسعادة . من خلق كل ذلك ياترى ؟ كثيراً ما يوجه الأطفال الصغار هذا السؤال الفطرى فى طبيعته ، الفلسفى فى مضمونه إلى آبائهم . فهم يدركون بعقولهم الفطرية التى ما زالت ساذجة أن لكل صنعة صانعاً ، وأن لكل مخلوق خالقاً . (فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) . تلك هى فطرة الطفولة وذلك هو وحى الإلهام .

فإذا ما شب الطفل ونمى ودخل فى طور الشباب والمراهقة ،

وتفتح مخه للبحث فى بعض المفاهيم ، وفى مقدمتها وجود الله . جنح للبحث عن حقيقة ذلك الإله الذى كان يعتقد فى وجوده أثناء طفولته ، ما هو ذلك الإله ؟ ولم لا يراه ؟

ويستمر فى هذه الوساوس ويناقش هذه القضية مع والديه ومدرسيه وأصدقائه فإذا لم يجد توجيهاً سليماً وجواباً شافياً يزيل عنه شكوكه ، فإنه لا يلبث أن يجنح إلى الإلحاد ، على إثر قراءته لأفكار إلحادية أو استماع إلى هذه الأفكار تسد عليه الطريق وتغلق مخه عن تقبل أية فكرة عن الالوهية ، لأن الفكر الإلحادى إنما هو فكر متعصب أعمى .

والدلائل على وجود الله أكثر من أن تحصى ، لأن كل ذرة فى الكون تشهد بوجوده سبحانه ، وتنطق باسمه ، وتسبح بحمده .

ونحن فى هذا الفصل سوف نجول جولة قصيرة مع بعض المفكرين الذين أدركوا وجود الخالق بالنظر والتأمل والتفكير السليم ، البعيد عن التعصب الأعمى ، مسلمين وغير مسلمين ، قدامى ومحدثين لنستخلص آراءهم ونتائج تفكيرهم وخلاصة دراستهم . وهم مختلفون زمناً ، ومكاناً ، وجنساً ، ولكنهم متفقون فكراً وروحاً لأن العقول البشرية إذا ما زكت وصفت فإنها تصبح

قاربة في تفكيرها واتجاهها وسلوكها ، متحدة في غايتها ، وهي صول إلى الحقيقة .

بين سقراط وأحد المحدثين :

قال سقراط : قل لي يا أرستوديم أيوجد رجال تعجب بهم بمهارتهم وجمال صنائعهم ؟

أرستوديم : نعم حقيقة .

سقراط : أخبرني عن أسمائهم .

أرستوديم : أعجب في الشعر الروائي بهومير ، وفي الديثيرانيا بميلانيد ، وفي المراثي بسفوكل ، وفي صناعة التماثيل ببولكتيت ، وفي التصوير بروكسيس .

سقراط : أي الصناع في نظرك أولى بالإعجاب . آلذي يخلق صوراً بلا عقل ولا حراك ، أم الذي يبدع كائنات ذات عقل وحياة ؟

أرستوديم : وحق جوبتير أن أولاهما بالإعجاب هو الذي يبدع الكائنات المتمتعة بعقل وحياة ، إذا لم تكن هذه الكائنات من نتائج الاتفاق .

سقراط : ولكن أى الكائنات أولى أن تعتبرها من نتائج الاتفاق أو من نتائج الادراك ، آلتى غايتها ظاهرة ، أم التى منافعها مشكوك فيها ؟

أرستوديم : من العدل أن أقول إن الكائنات ذات النفع هى أولى بأن تنسب إلى عمل الإدراك .

سقراط : ألا ترى أن الذى فطر الناس قد أعطاهم ما لديهم من الأعضاء لغايات ومقاصد خاصة ، فأعطاهم الأعين للنظر والآذان للسمع ، وماذا كانت تجدينا الروائح إن لم تكن لنا أنوف ، وهل كنا نشعر بمرارة المر وحلاوة الحلو إن لم تكن لنا ألسنة تميز بين هذه الطعوم ؟ ثم ألا ترى من دلائل التبصر والحيطة أن تكون الأعين لرقتها وسرعتها فى التأثر قد متعت بالأجفان تقفل وتفتح بالإرادة ، وتنسدل على العين وقت النعاس ، وقد حليت أطرافها بأشبه شىء بالغربال من الرمش ليحميها شر الرياح ، وأن الحواجب قد وضعت لتمنع تساقط العرق إليها ، وأن الآذان خلقت قابلة لتمييز جميع الأصوات ، بدون أن تمتلىء قط ... كل هذه الأعمال التى تدل على بصر واحتياط إلى أى شىء تعزوها . للاتفاق أم للإدراك ؟

أرستوديم : لا وحق جوبتير إن هذه الأعمال إذا نظر إليها لإنسان تدل على أن قد صنعها صانع يحب الكائنات الحية .

سقراط : وماذا تقول فى الميل المودع فى النفوس للتناسل ، فى الحنان المخلوق فى قلوب الأمهات للهيمنة على فلذات أكبادهن ، فى الخوف الموجود فى تلك الكائنات من العطب .

أرستوديم : لا شك أن كل هذا يدل على أنه اختراع كائن بر خلق الحيوانات[1] .

هذه مناقشة واعية حكيمة وهادئة جعلت هذا الملحد يعترف بوجود الله فى آخر الأمر بعد أن رأى كل الأدلة تشير إلى وجوده .

وقد آثرت إيراد هذا الجزء الكبير من هذه المناقشة لما فيه من تسلسل متتابع يكمل بعضه بعضاً ، ولما تتسم به هذه المناقشة من البساطة والوضوح وقوة الحجة . ولا غرو فهى صادرة من أبى الفلاسفة الإلهيين « سقراط » الذى توصل إلى وجود الله عن طريق البحث والنظر والتأمل فى فترة ومكان ليس بهما رسول يوفر على الإنسان بحثه فى موضوع كهذا من أصعب وأعقد الموضوعات الفلسفية .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ص ٤٨٦ مجلد ١ .

ديكارت والذات الكاملة :

وإذا تركنا سقراط فيلسوف اليونان القديم إلى فيلسوف قريب العهد بنا وهو « ديكارت » فسيحدثنا عن أدلة وجود الله التى استنتجها من وجود ذاته هو .

قال ديكارت : « ١ — إنى مع شعورى بنقص ذاتى أحس فى الوقت نفسه بوجوب وجود ذات كاملة . وأرانى مضطراً للاعتقاد بأن هذا الشعور قد غرسته فى ذاتى تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال » .

٢ — إنى لم أخلق ذاتى بنفسى ، وإلا فقد كنت أعطيها سائر صفات الكمال التى أدركها ، إذن . أنا مخلوق بذات أخرى ، وتلك الذات يجب أن تكون حائزة جميع صفات الكمال وإلا اضطررت أن أطبق عليها التعليل الذى طبقته على نفسى .

٣ — « إن عندى شعوراً بوجود ذات كاملة — لا يفترق فى الوضوح عن شعورى بأن مجموع زوايا المثلث تساوى زاويتين قائمتين »[1] .

ويتضح من ذلك أن ديكارت أدرك أنه ليس كاملا ، وأنه لا بد أن تكون هناك ذات كاملة يحتاج إليها وتهيمن على سير

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ص ٩٠٤ مجلة ١ .

حياته ، وأن بمجرد شعوره بهذا الإحساس يدل على وجود تلك الذات ، لأنها لو لم تكن موجودة لما خطر فى ذهنه ذلك الإحساس بها .

كما أن العلامة الفسيولوجى « لينين » يقول : « إن الله الأزلى الكبير العالم بكل شىء والمقتدر على كل شىء قد تجلى لى ببدائع صنائعه ، حتى صرت دهشاً متحيراً ، فأى قدرة وأى إبداع أودعه مصنوعات يده ، سواء فى أصغر الأشياء أو أكبرها ، إن المنافع التى نستمدها من هذه الكائنات تشهد بعظمة رحمة الله الذى سخرها لنا ، كما أن جمالها وتناسقها ينبىء بواسع حكمته ، كذلك حفظها من التلاشى وتجددها يقر بجلالته وعظمته »[1] .

هكذا يقرر العلامة لينين حكمة الله القدير فى تناسق مخلوقاته من أصغر ذرة إلى أعظم جرم ، لا فرق بين هذه وتلك ، فكلها آية فى الإبداع والجمال .

وكلما أمعن الإنسان فى التأمل والنظر كلما تجلت له عظمة الخالق وبهرته دقة صنعه وكلما ازداد بحثاً كلما قرب من اليقين والإيمان . أما أولئك الذين يدعون الإلحاد فهم أنصاف متعلمين ، وأنصاف

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ص ٥٠٤ مجلد ١ .

المتعلمين أجنى على الحقائق من الجهلاء ، وأقرب إلى التعصب الأعمى من المقلدين بدون تفكر أو نظر .

وإذا تركنا فلاسفتنا القدامى إلى فلاسفتنا المحدثين ، فإننا نجد تقارباً فى الفكر ، وتوحداً فى الهدف ، ووصولا إلى نتيجة واحدة بين هؤلاء وأولئك .

يقول الشيخ محمد الغزالى مدللا على وجود الخالق بمنطق سليم وفكر متزن وحجة قاطعة ودليل دامغ .

(ا) إن الإنسان لم يخلق نفسه ، ولم يخلق أولاده ، ولم يخلق الأرض التى يدرج فوقها ، ولا السماء التى يعيش تحتها ، والبشر الذين ادعوا الألوهية لم يكلفوا أنفسهم مشقة ادعاء ذلك . فمن المقطوع به أن وظيفة الخلق والابراز من العدم لم ينتحلها لنفسه إنسان ، ولا حيوان ، ولا جماد ، ومن المقطوع به كذلك أن شيئاً لا يحدث من تلقاء نفسه ، فلم يبق إلا الله ، وقد قرر القرآن الكريم هذا الدليل[٢] . قال تعالى : (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون) .

(ب) لو دخل المرء داراً فوجد بها غرفة مهيأة للطعام ،وأخرى

---

(١) عقيدة المسلم .

م ، وأخرى للنظافة ، وأخرى للضيافة .. الخ ، لجزم بأن هذا
تيب لا يتم وحده ، وأن هذا الإعداد النافع لا بد قد نشأ عن
ير وحكمة ، وأشرف عليه فاعل يعرف ما يفعل .

والناظر فى الكون وآفاقه ، والمادة وخصائصها ، يعرف أنها
ومة بقوانين مضبوطة ، شرحت الكثير منها علوم الطبيعة
كيمياء والنبات والحيوان والطب . . وأفادت منها الناس أجمل
رائد ، وما وصل إليه علم الإنسان من أسرار العالم ، حاسم فى
اد كل شبهة توهم أنه وجد كيفما اتفق . كلا . إن النظام الدقيق
تفى فى طوايا الذرة مطرد فيما بين أفلاك السماء الرحبة من
اد[1] . قال تعالى : (تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل
ا سراجاً وقمراً منيراً) سورة الفرقان : ٦١ .

(ح) هل فكرت فى هذه السيارات المنطلقة ، أعنى هذه
كواكب التى تخرق أعماق الجو ، والتى تلتزم مداراً واحداً
تنحرف عنه يميناً ولا يساراً ، وتلتزم سرعة واحدة لا تبطىء
ا ولا تعجل ، ثم ترتقبها فى موعدها المحسوب فلا تختلف عنه
اً ، إن الكرة تنطلق من أقدام اللاعبين ثم لا تلبث أن تهوى بعد
ليق ، أما هذه الكرات الغليظة الحجم ، الحى منها والميت ، المضىء
ها والمظلم ، فهى معلقة لا تسقط .. سائرة لا تقف ..! كل فى دائرة

---

(١) عقيدة المسلم .

لا يعدوها ، وقد يصطدم المشاة . والركبان على أرضنا وهم أصحاب بصر وعقل ، أما هذه الكواكب التى تزحم الفضاء ، فإنها لا تزيغ ولا تصطدم »[١] .

قال تعالى : (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم .. . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) . سورة يس آيات ٣٧ — ٤٠ .

مَن هيمن على نطاقها وأشرف على مدارها ؟ بل من الذى أمسك بأجرامها الهائلة ، ودفعها تجرى بهذه القوة الفائقة ؟ إنها لا ترتكز فى علوها إلا على دعائم القدرة ، ولا تطير إلا بأجنحة أعارها لها القدير الأعلى »[٢] قال تعالى : (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً) .

(د) لا شك أن لوجود كل واحد منا بداية معروفة ، فنحن قبل ميلادنا لم نكن شيئاً (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) وعناصر الكون الذى نعيش فيه كذلك لها بداية معروفة ... إننا جازمون بأن وجودنا محدث ، لأن تفكيرنا

---

(١) عقيدة المسلم ص ١٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥ .

وإحساسنا يهدينا إلى ذلك ، وغير معقول أن يتطور العدم إلى وجود تطوراً ذاتياً .

إنه إذا وقعت حادثة لم يدر فاعلها . . قيل : إن الفاعل مجهول ، ولم يقل أحد قط : إنه ليس لها فاعل . . فكيف يراد من العقلاء أن يقطعوا الصلة بين العالم وربه ؟ إننا لم نكن شيئاً فكنا . . . فمن كوننا ؟ »[1] (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) .

نعم . الله . . .

يقول الإستاذ عبد الرزاق نوفل مبيناً ارتباط السبب بالمسبب، والصنعة بالصانع ، والإبداع بالمبدع : « إذا تصادف أن مر الانسان على مزرعة شاسعة فى مكان مقفر ، ووجد أنها قد ضرب حولها سور حديدى يمنع عنها غوائل المعتدى ، وأن هذا السور قد زين بما ترتاح إليه الأعين من نباتات ومتسلقات ، وخلف السور زرعت مصدات الريح ، ومانعات الهبوب ، وللمزرعة باب جميل وممر مناسب ، على جانبيه مقاعد وثيرة لراحة الداخل ، وأماكن لقضاء حاجته من أكل وشراب ، ثم تتسع بعد ذلك المزرعة ، فنرى أشجارها المختلفة الأصناف قد شذبت ، وأزهارها المتعددة الأشكال قد نسقت ، وترعها وقنواتها شقت بما يحقق الغرض منها ،

---

(١) عقيدة المسلم .

وفى وسطها بناء للسكن قد حسن شكله وانتظم ما بداخله ، وقد زود بكل ما يحتاج إليه المرء .

فهل ينسب خلق ذلك إلى المصادفة ؟ وأن هذه المزرعة وهذا البناء إنما وجدا من عدم ؟ وأنها والمكان الخرب سواء ؟ كذلك الحال فى عجائب الحياة فى الأحياء إذا ألقينا نظرة عابرة متأملة على أى كائن حى لا تملك إلا أن نسبح للخالق الذى يثبت وجوده ما نراه فى عجائب الحياة فى الأحياء . . »[1] .

ولنقض لحظات أخرى مع الشيخ الغزالى فى تأملاته ومنطقه المتسلسل .

يقول الشيخ الغزالى : « لو قيل لك إن إسكافياً فى إحدى حارات القاهرة شارك بعلمه فى إرسال صواريخ الفضاء ، وبعث الأقمار الصناعية . فماذا تقول ؟ ستقول يقيناً : هذه أضحوكة .

لماذا ؟ لأن إطارة هذه الأقمار توافر عليها نفر من العلماء العمالقة أتقنوا من الدراسات الكونية ما يعجز أمثالهم عن مناله .

إن سبعين قنطاراً تنطلق فى الفضاء وتعود وفق خطة مرسومة ،

---

(١) الله والعلم الحديث ص ٥٣ .

متحدية قوانين الجاذبية وعواصف المجهول عمل هائل تراضت عقول كبيرة فى إتقان كل أنملة منه .

وليس ثمَّ مجال للقاصرين والجاهلين يتحمل وجودهم ، بله مشاركتهم ، فما الأساكفة وهذا الأفق . ولو قيل لك انظر هذا القصر الوسيق الأركان السامق البنيان ! إن أحد البغال التى تشد عربات النقل هو الذى شاده ! !

إنك بداهة ستثق من أن القائل قد جن ، لماذا ؟ لأنك تعلم أن أفكاراً نيرة وأيدياً قادرة هى التى خططت الشكل ، ثم أقامت الأركان ، وصاغت الأبواب والنوافذ ، ونسجت شبكة الضوء والماء ، ووزعت عليه علواً وسفلا أنواع الطلاء . .

وأنى للبغال كلها هذه القدرة ؟[١] » .

« إن الإيجاد والتدبير وظائف عالية ، لا يمكن أن تتم إلا إذا تصورنا إرادة عليا ، وقدرة عليا ، وحكمة عليا ، وعلماً أعلى ، وإبداعاً أعلى . هذه الصفات لا تتصور إلا فى ذات المريد القادر الحكيم العليم ، بديع السموات والأرض ذى الجلال والإكرام »

ثم يقول الأستاذ الغزالى مخاطباً المنكرين لوجود الخالق :

---

(١) مجلة منبر الإسلام العدد ٣ سنة ١٣٨١ ص ٦٣ .

« إنك تتصور فى تراب الحقول الذى تأنقت فوقه الأزهار والثمار عبقرية مصورة خلاقة ، وأنا لا أتصور فى تراب الحقول شيئاً من هذا ، وأرجع وجود الأزهار والأثمار إلى كائن أعلى هو الجدير بأن يسمى الخالق المصور .

« إنك تستقبل الوليد حين يتفتح عنه الرحم زاعماً أن فى جسم الأم المصانع التى نسجت اللحم ، وأنشأت العظم ، وأوجدت المخ قابلا للذكاء والتفكير ، وأنا لا أرى فى جسم الأم إلا مجالا لعمل المشرف الأعلى الذى يقول : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين[1]) سورة المؤمنون: ١٢، ١٣، ١٤

والإنسان هو آية الإبداع الإلهى فى هذا الوجود بما أوتى من قوة مفكرة ومميزات عالية تجعله أسمى المخلوقات فى كون الله الفسيح . وهو يعتبر أكبر دليل على عظمة الصانع الذى خلق فسوى وقدر فهدى . وإذا ما نظرنا إلى الإنسان ككل فإننا سنقف مشدوهين أمام عظمة الصانع الحكيم .

---

(١) مجلة منبر الإسلام عدد ٣ سنة ١٣٨١ ص ٦٥

فالانسان يقوم بأعقد العمليات الفسيولوجية والبيولوجية مع تنسيق عجيب بين أجهزة جسمه المختلفة وبين الوسط المحيط به ، محتفظاً بسر الحياة واستمرار التفكير وقوة الإرادة حتى استحق أن يكون خليفة الله على الأرض . بيد أنه قد ينحط فى بعض الأحيان إلى الدرك الأسفل من الانحطاط حتى يفوق الحيوان البهيمى فى ذلك حينما يبتعد عن مصدر الهداية الإلهية وينقطع عنه مدد السماء .

ولكن الإنسان إذا صفت نفسه وسمت روحه فإنه سوف يجد كل شىء فى هذا الوجود ينطق بجلال الله .

يقول الشاعر عبد الله شمس الدين :

سل الواحة الخضراء والماء جاريا
وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزداناً سل الزهر والندا
سل الليل والإصباح والطير شاديا
وسل هذه الأنسام والأرض والسما
وسل كل شىء تسمع الحمد ساريا
ولو جن هذا الليل وامتد سرمداً
فمن غير ربى يرجع الصبح ثانيا ؟؟

ولو غاض هذا الماء فى القاع هل لـكم
سوى الله يجريه كما شاء راويا ؟؟
ولو أن هذى الريح ثارت وأعصرت
أفى كونـكم من يوقف الريح ناهيا ؟؟
ألا أيها البحاث ما بـال بحثـكم
توقف مشدوها لدى الـكون واهيا
إلهى ضل الناس فى جنح غيهم
وليس لهم إلاك يارب هاديا

* * *

وبعد . فإن الفـكر السليم والفطرة الصافية يدركان وجود الخالق الأسمى سبحانه وتعالى . وقد ظهر لنا ذلك جليا فى استعراض خلجات بعض هؤلاء المفـكرين الذين تباينت أجناسهم ،واختلفت لغاتهم وأزمنة وجودهم ، وفصلت البحار والفيافى بين أوطانهم ولـكنهم اتفقوا جميعاً فى أفـكارهم ومشاعرهم لأن الحق لا يتعدد بل هو واحد أبداً .

الفصل الثالث

مع الفلك

مع الفلك

يتعلق علم الفلك بدراسة الأجرام السمارية والمجموعات الشمسية وما لها من تأثير فعال فى الظواهر الطبيعية والتغيرات الجوية على عالمنا الصغير الذى نعيش فيه ، ويستخدم الفلكيون لذلك أجهزة دقيقة ومناظير ضخمة ومع ذلك فهناك أشياء كثيرة لم يروها ، غير أنهم يجزمون بوجودها . ولذلك فهم أقرب الناس إلى الإيمان بالله الذى لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

يقول الأستاذ العقاد : « إذا جازت المفاضلة بين حقوق العلماء فى بحث المسألة الإلهية ، فأرجح العلماء حقاً فى هذه المباحث هم علماء الطبيعة الفلكيون » وصدق الأستاذ العقاد . فالعالم الفلكى يسرح الطرف فى آفاق هذا الكون الفسيح ، فلا يملك إلا أن يقر بإبداع الله وعظمته . . . أفلاك تدور ، وكواكب تسبح ، وأنجم تتألق ، وفضاء يمتد ويمتد ، مئات البلايين من النجوم والشموس الساطعة ، عدد لا يدركه حصر ، ولا يتصور أن يصل إلى منتهاه عقل ، وأصغر نجم من هذه النجوم يفوق كرتنا الأرضية بملايين المرات من حيث حجمه !

هذا هو كل ما توصل إليه العلماء حتى الآن بالأجهزة الحديثة، والمناظير الضخمة بيد أن هناك من النجوم ما لا يرى أو يحس ومع ذلك فإن علماء الفلك يؤكدون وجودها ، لا يداخلهم فى ذلك شك حيث إنهم يرون آثارها . ونحن نعلم أن هناك أشعة فوق البنفسجية وأشعة تحت الحمراء ندرك آثارها ونعلم خواصها ومع ذلك فهى لم تر ، لكننا نجزم بوجودها قطعاً ، لذلك كان العالم الفلكى شديد الايمان بوجود الله ، الذى يرى آثار قدرته فى كل شىء أمام عينيه ، لأنه يعلم أن كثيراً من الأجرام المادية لم تدرك ،فكيف بالخالق ؟؟

قال تعالى : (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك) (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) يقول العلامة « سينكا » . « لا يستطيع المرء أن يرفع بصره نحو السماوات العلى إلا ويغضى إجلالا ووقاراً ، إذ يرى ملايين من النجوم الزاهرة الساطعة ، ويراقب سيرها فى أفلاكها ، وتنقلها فى أبراجها »[1] .

وصدق الله العظيم : (الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى

---

(١) الله والعلم الحديث ص ٤٢ .

في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير) .
سورة الملك : ٣ ، ٤ .

القوة المهيمنة :

سأل الناس يوماً الفلكى الشهير العلامة « نيوتن » أن يأتيهم بدليل على وجود الله يكون فى درجة المحسوسات ، فقال لهم : « لا تشكوا فى الخالق . فإنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هى قاعدة الوجود ، لأن ضرورة عمياء متجانسة فى كل زمان وفى كل مكان لا يتصور أن يصدر منها هذا التنوع فى الكائنات ، ولا هذا الوجود كله بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها مع تغيرات الأزمنة والأمكنة ، بل إن كل هذا لا يعقل أن يصدر إلا من كائن أعلى له حكمة وإرادة . . . ومن المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرد فعل الجاذبية العامة ، لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس ، فيجب لأجل أن تدور هذه الكواكب حول الشمس ، أن توجد يد إلهية تدفعها على الخط المماسى لمداراتها . . . ومن الجلى الواضح بأنه لا يوجد أى سبب طبيعى استطاع أن يوجه جميع الكواكب وتوابعها للدوران فى جهة واحدة ، وعلى مستوى واحد بدون حدوث أى

تغيير يذكر ، فالنظر لهذا الترتيب يدل على وجود حكمة سيطرت عليه . ثم إنه لا يوجد سبب طبيعي استطاع أن يعطي هذه الكواكب وتوابعها هذه الدرجات من السرعة المتناسبة تناسباً دقيقاً مع مسافتها بالنسبة للشمس ، ولمراكز الحركة ، تلك الدرجات الضرورية لأن تتحرك هذه الأجرام على مدارات ذات مركز واحد مشترك بين جميعها ، فلأجل تكوين هذا النظام مع جميع حركاته يجب وجود سبب عرف هذه المواد وقارن بين كمية المادة الموجودة فى الأجرام السمارية المختلفة ، وأدرك ما يجب أن يصدر منها من القوة الجاذبة ، وقدر المسافات المختلفة بين الكواكب والشمس وبين توابعها ، وما تورن ، وجوبتير ، والأرض ، وقدر السرعة التى يمكن أن تدور بها هذه الكواكب ، وتوابعها حول أجسام تصلح أن تكون مراكزها .

إذن فمقارنة هذه الأشياء والتوفيق بينها وجعلها نظاماً يشمل كل هذه الاختلافات بين أجزائه ، كل هذا يشهد بوجوب وجود سبب لا أعمى ولا حادث بالاتفاق ، ولكن على علم راسخ بعلم الميكانيكا والهندسة » . « وهذه الكائنات كلها فى قيامها على أبدع الاشكال وأكملها ، يرى حقيقة كل شيء فى ذاته ويدركه أكمل إدراك ؟ »[١] .

(١) دائرة معارف القرن العشرين ص ٤٩٦ مجلد ١ .

هذا عالم من أساطين علماء الفلك وكبار علماء الطبيعة ، وصاحب قانون « الجاذبية العامة » يشهد عن يقين وبكل ارتياح بوجود الخالق جل شأنه ، الذى أبدع الكون ونظمه بقدرته وحكمته . فهو يقرر ذلك بعد دراسات مستفيضة وتأمل متبصر ونظر ثاقب ويقين لا يقبل الشك ، فهو مع علمه بأن هناك قوة جذب بين الكواكب وبين الشمس ، كذلك بين أجزاء الكون كاله ، إلا أنه يقرر أن هذه القوة الجاذبة لاتصنع شيئاً مالم تسيرها يد إلهية ! وهو يصف الخالق بأوصاف متقاربة مع الأوصاف التى وصف الله سبحانه بها نفسه .

سبحانك اللهم . ما أبدع عظمتك ، وما أعظم إبداعك ، وما أجل صنعك .

(إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) .

استحالة الخلق بالمصادفة :

ويقول الفلكى الشهير « لابلاس » صاحب نظرية السديم : « أما القدرة الفاطرة فقد عينت جسامة الأجرام الموجودة فى المجموعة الشمسية ، وكثافتها ، وثبتت أقطار مداراتها ونظمت

حركاتها بقوانين بسيطة، ولكنها حكيمة، وعينت مدة دوران السيارات حول الشمس والتوابع حول السيارات، بأدق حساب. ان هذا النظام المستمر إلى ما شاء الله لا يعروه خلل هذا النظام المستند إلى حساب يقصر عقل البشر عن إدراكه، بحيث لا يمكن أن يحمل على المصادفات إلا باحتمال واحد فى أربعة تريوليونات »[1].

يقول الشيخ الغزالى: « وما أدراك ما أربعة تريوليونات؟ إنه عدد مكون من كلمتين ولكن لا يمكن أن يحصيه المحصى إلا إذا لبث خمسين ألف عام يعد الأرقام ليلا ونهاراً على أن يعد فى كل دقيقة ١٥٠ عدداً ».

علاقة الأرض بالكون:

إذا قارنا حجم الكرة الأرضية بحجم النجوم والأفلاك الأخرى، أخذتنا العزة بالإثم، واشتط بنا الغضب... كيف ونحن المخلوقات الراقية، ذات العقول التى جابت الآفاق واكتشفت المجهول، وسخرت الكون لخدمتها، تكون دنيانا بهذه الضآلة،

---

(١) عقيدة المسلم.

بحيث لا تذكر فى حساب الحجوم والمسافات بالنسبة إلى هـــذا الكون الفسيح ؟

وما هذا الغضب وذلك الشطط إلا لأننا لا ندرك لأول وهلة حكمة الخالق ، وسر الصانع الحكيم فى إيجاد كوكبنا على هذه الصورة ، من حيث حجمه والجو المحيط به . أما حينما نعلم الحكمة من ذلك فسوف نخر سجداً لله شاكرين . . .

يقول الدكتور — ا . كريسى موريسون : « ومن بين تلك الكتل التى اقتلعت تلك الحزمة من الكون التى نسميها بالكرة الأرضية ، إنها جسم لا أهمية له فى نظر الفلك ، ومع ذلك يمكن القول بأنها أهم جسم نعرفه حتى الآن »[1] .

ويقول الدكتور فرانك إللن : « كثيراً ما يسخر البعض من صغر حجم الأرض بالنسبة لما حولها من فراغ لا نهائى ، ولو أن الأرض كانت صغيرة كالقمر ، أو حتى لو أن قطرها كان ربع قطرها الحالى لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الهوائى والمائى الذين يحيطان بها ولصارت درجة الحرارة فيها بالغة حد الموت ، أما لو كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالى لتضاعفت مساحة سطحها

---

(١) العلم يدعو للايمان ص ٥٠ .

أربعة أضعاف وأصبحت جاذبيتها للأجسام ضعف ما هى عليه ، وانخفض تبعاً لذلك ارتفاع غلافها الهوائى ، وزاد الضغط الجوى من كيلو جرام واحد إلى كيلو جرامين على السنتيمتر المربع ، ويؤثر كل ذلك أبلغ الأثر فى الحياة على سطح الأرض... ولو كانت الأرض فى حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها لتضاعفت جاذبيتها للأجسام التى عليها مائة وخمسين ضعفاً وانقص إرتفاع الغلاف الجوى إلى أربعة أميال من خمسمائة ميل . ولأصبح تبخر الماء مستحيلا ، ولا ارتفع الضغط الجوى إلى ما يزيد على ١٥٠ كيلو جراما على السنتيمتر المربع ، ولوصل وزن الحيوان الذى يزن حالياً رطلا واحداً إلى ١٥٠ رطلا ، ولتضاءل حجم الإنسان حتى صار فى حجم ابن عرس أو السنجاب ، ولتعذرت الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات . .

« وعلى ذلك فإن الأرض بحجمها وبعدها الحاليين عن الشمس ، وسرعتها فى مدارها ، تهيء للإنسان أسباب الحياة والإستمتاع بها فى صورها المادية والفكرية والروحية على النحو الذى نشاهده اليوم فى حياتنا »[1] إن الفيل يزن القناطير المقنطرة ومع ذلك فهو لا يساوى شيئاً إذا ما قورن بالإنسان الذى لا يتعدى وزنه ١ : ٤٠ من وزن ذلك الحيوان المهول ، ولكن شتان بين العقل المفكر وبين

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٩

كومة من اللحم ،شتان بين تل من الرمال وقطعةمن الماس لاتتعدى بضع جرامات .

إن الله الذى كرم بنى آدم وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلا، قد سخر لهم ما فى البر والبحر وخلق لهم ما فى الأرض جميعاً ، ولـكن الإنسان ظلوم كفار ، بيد أن الله رحيم غفار . .

يقول الدكتور كريسى موريسون : « والـكرة الأرضية تدور حول الشمس بسرعة معدلها ثمانية عشر ميلا فى الثانية ، ولو أن معدل دورانها كان مثلا ستة أميال أو أربعين ميلا فى الثانية ، فإن بعدنا عن الشمس أو قربنا منها يكون بحيث يمتنع معه نوع حياتنا ... ثم إن الـكرة الأرضية مائلة بزاوية قدرها ٢٣° درجة . ولهذا دواع دعت إليه . فلو أن الـكرة الأرضية لم تـكن مائلة لـكان القطبان فى حالة غسق دائم ، ولصار بخار الماء المنبعث من المحيطات يتحرك شمالا وجنوباً ، مكدسا فى طريقه قارات من الجليد،وربما ترك صحراء بين خط الإستواء والملح ، وفى هذه الحالة كانت تنبعث أنهار من الجليد وتتدفق خلال أودية إلى قاع المحيط المغطى بالملح، لتـكون بركا مؤقتة من الملح الأجاج ، وكان ثقل الـكتلة الهائلة من الجليد يضغط على القطبين فيؤدى ذلك إلى فرطحة خط الاستواء

أو فورانه ، أو على الأقل كان يتطلب منطقة استوائية جديدة ، كما أن انخفاض المحيط يعرض مساحات شاسعة جديدة من الأرض، ويقلل هطول المطر فى كافة أرجاء العالم بما ينتج عن ذلك من عواقب مخيفة[1] ... ولو كان قمرنا يبعد عنا خمسين ألف ميل مثلا بدلا من المسافة الشاسعة التى يبعد بها عنا فعلا ، فإن المد كان يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأراضى التى تحت منسوب الماء كانت تغمر مرتين فى اليوم بماء متدفق يزيح بقوته الجبال نفسها،وفى هذه الحالة ربما كانت لا توجد الآن قارة قد ارتفعت من الأعماق بالسرعة اللازمة ، وكانت الكرة الأرضية تتحطم من هذا الإضطراب ، وكان المد الذى فى الهواء يحدث أعاصير كل يوم »[2] .

أأدركت حكمة الصانع فيما صنع ؟ ؟

(تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً) . الفرقان : ٦١

ويقول الدكتور — سيسل هامان : « إذا رفعنا أعيننا نحو السماء ، فلا بد أن يستولى علينا العجب من كثرة ما نشاهده فيها

---

(١) العلم يدعو للإيمان ص ٥٣

(٢) المرجع السابق ص ٥٥

من النجوم والكواكب السابحة فيها، والتي تتبع نظاماً دقيقاً لا تحيد عنه قيد أنملة، مهما مرت بها الليالي وتعاقبت عليها الفصول والأعوام والقرون، إنها تدور في أفلاكها بنظام يمكننا من التنبؤ بما يحدث من الكسوف والخسوف قبل وقوعه بقرون عديدة.

فهلا يظن أحد بعد ذلك أن هذه الكواكب والنجوم قد لا تكون أكثر من تجمعات عشوائية من المادة تتخبط على غير هدى في الفضاء؟».

«والحق أنه من قطرة الماء التي رأيناها تحت المجهر إلى تلك النجوم التي شاهدناها خلال المنظار المقرب، لا يسع الإنسان إلا أن يمجد ذلك النظام الرائع، وتلك الدقة البالغة والقوانين التي تعبر عن تماثل السلوك وتجانسه... وكلما وصل الإنسان إلى قانون جديد فإن هذا القانون ينادي قائلا: إن الله هو خالق وليس الإنسان إلا مستكشفاً»[1].

هكذا أدرك هؤلاء العلماء الذين لم يقصدوا إلا الوصول إلى الحقيقة ـ والحقيقة وحدها ـ عظمة خالق هذا الكون، وحنوه على مخلوقاته وإنعامه عليهم. ولم يزدهم علمهم إلا شعوراً بضآلة هذا

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص ١٤٣ .

الإنسان أمام مالك الملك وخالق السموات والأرض . كما أن بحثهم لم يزدهم إلا تقرباً إلى الله واحتماء فى رحابه .

(إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

(ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) .

واليوم ، وقد اتجه الإنسان إلى استكشاف الفضاء ، فأرسل صواريخه وأقماره ، فإننا لا نعتبر ذلك إلا فاتحة خير تزيد الإيمان بوجود الله . وقد طمأننا القرآن الكريم بذلك من أربعة عشر قرناً ، حينما نزل الوحى على سيد المرسلين ، فأعرض الظالمون لأنفسهم ، وتغطرس الذين أغلقوا عقولهم . ولكن الله دائماً متم نوره ولو كره الكافرون .

(سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) .

نعم . إن دراسة الفضاء طريق إلى تثبيت الإيمان بالله والاعتراف بعظمته . إن سفينة الفضاء التى لا يزيد وزنها عن عدة قناطير اقتضت جهود عشرات الأجيال من العلماء والباحثين ، واشترك فى صناعتها آلاف من العلماء والمهندسين والعمال ، ثم انطلقت إلى الفضاء الرحب ، موجهة بأجهزة على الأرض تحفظ لها خط سيرها

وتوجهها إلى مدارها السليم . ولو حدث خلل فى هذه الأجهزة الموجهة للسفينة لسقطت على التو وأصبحت حطاما ... فإذا كانت هذه الكتلة التى لا تذكر لا يمكن أن تستمر معلقة فى الفضاء بدون موجه يمسكها ، فكيف بتلك الأجرام المتناهية فى الضخامة، المعلقة فى الفضاء بلايين السنين؟ أيعقل أن تسير بغير موجه ، أو أن تحلق بغير مهيمن عليها . كلا . إنها فى قبضة الله . وتحت توجيه الخالق .

هذه على ما أتصور هى النتيجة النهائية لاستكشاف الفضاء إذا ما تجرد الإنسان من أهوائه وصدق مع نفسه وفطرته .

ولقد سمع رائد الفضاء السوفيتى « جاجارين » وهو محلق فى الفضاء بمركبته يقول : إنه لشيء رائع . . رائع جداً ، إننى أرى من الألوان ألواناً لم أرها من قبل ، إنه لمنظر ساحر ! ليت الشعراء كانوا معى حتى يصفوا هذا المشهد البديع .

أما الرائد الثانى « تيتوف » فقد قال فى مؤتمر صحفى : إنه عندما كان محلقاً فى الفضاء ، ورأى الأرض فوق رأسه تدور وهى معلقة فى الفراغ قال فى نفسه : ترى من يمسكها هكذا ؟ وكيف أنها لا تقع؟

لا شك أنه أحس بأن هناك قوة عليا تمسك هذه الكرة الغليظة .

ولكن ، لأمر ما ، عقد تيتوف مؤتمراً صحفياً آخر قال فيه إن الله لو كان موجوداً لرآه من خلال مركبته !! جالسا على العرش ممسكا بالصولجان !

ولكنه على كل حال لم ير هذا المشهد !

أما « جون جلين » رائد الفضاء الأمريكى فإنه قد صدق مع نفسه وتحدث بما أوحت به إليه فطرته .

يقول جون جلين : « والآن ... ماذا أريد أن أقول ؟ أريد أن أتحدث عن إنتظام الكون بأسره من حولنا . . من أصغر تكوين ذرى ، إلى أضخم شيء يمكن تصوره . . مجرات تبعد ملايين من السنوات الضوئية ، كلها تسير فى مدارات مرسومة محددة فى علاقة كل منها بالآخر .

فهل يمكن أن يكون ذلك كله قد حدث إتفاقاً ؟ . . أ كانت مصادفة أن حزمة من نفايات الغازات الطافية بدأت فجأة فى صنع هذه المدارات وفقاً لاتفاقها الخاص ؟

إننى لا أستطيع أن أصدق ذلك . . بل كانت تلك خطة محددة وهذا واحد من الأشياء الكثيرة فى الفضاء التى تبين لى أن هناك إلهاً . وان قوة ما قد وضعت كل هذه الأشياء فى مداراتها

وأبقتها هناك . » . « وأنت لا تستطيع أن تقيس الله بعبارات علمية . . إنك لا تستطيع أن ترى أو تحس أو تشم أو تلمس القوى الدينية إذ أنها شيء غير ملموس »[1] .

شتان بين هذا وأولئك ، شتان ما بين الصدق مع النفس والكذب عليها .

قال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب) .

---

(١) مجلة المختار عدد يوليه سنة ١٩٦٢ ص ٢٠

الفصل الرابع

مع الطبيعة

مع الطبيعة

دراسة علم الطبيعة ، من الدراسات التى توصل إلى إدراك إبداع الخالق سبحانه وتعالى عن تجربة يقينية ، وأدلة محسوسة ، تتجلى فى إبداع الموجودات من أصغر ذرة إلى أعظم نجم يتألق فى هذا الكون اللانهائى ، فهذا العلم يعتمد فى غالبية دراساته على الإختبارات المعملية والتجارب المتكررة ، حتى يتوصل العالم الطبيعى إلى دليل واضح أمام عينيه ، يوصله إلى وضع نظرية ، ثم إلى صياغة قانون ثابت ، كما أن عالم الطبيعة قد تصادفه بعض الظواهر التى تنتج عن أشياء لا يستطيع رؤيتها أو إدراكها حسياً ، ولكنه يرى آثارها واضحة أمام عينيه ، فالذرة لم نرها ، ولم نر ما بداخلها ، ومع ذلك وبعد دراسة الذرة ثبت أنها تحتوى على عدة جسيمات دقيقة موضوعة فى نظام متناسق وقوانين تحكمها ، فالذرة تتكون من نواة تحتوى على البروتونات ، وهذه النواة تقع فى مركز الذرة ، يدور حول هذه النواة عدد من الإلكترونات مساو لعدد البروتونات ، وهذه الإلكترونات تدور فى مدارات مختلفة الأقطار ، بحيث لا يصطدم إلكترون بآخر ، بقوة جذب معينة تحفظ توازن الذرة وتجعلها فى حالة ثابتة ، إلى غير هذه الأعاجيب التى تحتويها

الذرة التى لم تر ، ولكن العالم الطبيعى يعرف كل هذا النظام المعجز فى جوف هذه الذرة التى تعتبر الوحدة التى يتكون منها هذا العالم، وهذا النظام يشبه تماماً ذلك النظام الموجود فى المجموعة الشمسية. فالشمس فى مركز المجموعة ، تدور حولها الكواكب المختلفة — ومن بينها الأرض — فى أفلاك ثابتة ومدارات معينة لا تعدوها تنظمها قوة جذب معينة تحفظ هذا النظام إلى ما شاء الله، كل كوكب له مدار معين بقطر معين من مركز المجموعة ، يمنع اصطدام كوكب من هذه الكواكب بآخر !

وصدق الله العظيم : (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) .

وعلماء الطبيعة الذين تعمقوا فى دراستهم يؤمنون إيماناً يقينياً بوجود إله يسيطر على هذا الكون ، مبدع ، حكيم ، عليم خبير ..

وسنرى الآن مدى البرهان على صدق هذا القول من خلال اعترافات أساطين هذا العلم .

يقول الدكتور : فرانك إللن[1] ، نافياً بالدليل القاطع صحة

---

(١) عالم الطبيعة البيولوجية .

ذلك الرأى القائل بأن هذا الكون أزلى ، لا بداية لنشأته : «والرأى الذى يذهب إلى أن هذا الكون أزلى ليس لنشأته بداية إنما يشترك مع الرأى الذى ينادى بوجود خالق لهذا الكون ، وذلك فى عنصر واحد هو الأزلية ، وإذن فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت وإما أن ننسبها إلى إله حى يخلق . وليس هنالك صعوبة فكرية فى الأخذ بأحد هذين الإحتمالين أكثر مما فى الآخر ، ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا ، وأنها سائرة حتما إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الإنخفاض ، هى الصفر المطلق ، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة ، ولا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقات ، عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضى الوقت ، أما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة ، فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة ، فهو إذن حدث من الأحداث .

ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلى ليس له بداية ، عليم محيط بكل شيء ، قوى ليس لقدرته حدود ، ولا بد

أن يكون هذا الكون من صنع يديه »[١] .

ويقول الدكتور : بول كايرانس إبرسولد[٢] — مبينا قصور العلوم والعقل الإنسانى عن إدراك الماديات ، فضلا عما هو ليس مادياً : «إن العلم والعقل الإنسانى وحدهما لن يستطيعا أن يفسرا لنا لماذا وجدت الذرات ، والنجوم ، والكواكب ،والحياة،والإنسان بما أوتى من قدرة رائعة . وبرغم أن العلوم تستطيع أن تقدم لنا نظريات قيمة عن السديم ومولد المجرات والنجوم والذرات وغيرها من العوالم الأخرى ، فإنها لا تستطيع أن تبين لنا مصدر المادة والطاقة التى استخدمت فى بناء هذا الكون ، أو لماذا اتخذ الكون صورته الحالية ونظامه الحالى . والحق أن التفكير المستقيم والإستدلال السليم يفرضان على عقولنا فكرة وجود الله »[٣] .

ويقول الأستاذ : ملين إدوارد[٤] فى رده على الماديين معتبراً أقاويلهم مجرد أضاليل وفروض باطلة لا تستند إلى عقل ولا تؤدى إلى برهان صحيح : « ويجب أن يندهش الإنسان حينما يرى أمام

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٨

(٢) أستاذ الطبيعة البيولوجية

(٣) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٢٩ .

(٤) عالم طبيعة إنجليزى .

هذه المشاهدات الناطقة المتكررة الدالة على حكمة المبدع رجالا يدعون لك أن كل هذه العجائب الكونية ليست إلا نتائج للمصادفة أو بعبارة أخرى نتائج للخواص العامة للمادة ، وأثر لتلك الطبيعة التى تكون مادة الأحجار والخشب ، وأن إلهامات النمل مثل أسمى وأن مدركات القوة المدركة الإنسانية ليست إلا نتيجة عمل القوة الطبيعية أو الكيماوية . .

إن هذه الفروض الباطلة أو بالأحرى هذه الأضاليل العقلية التى يسمونها باسم العلم الحسى ، قد دحضها العلم الصحيح دحضاً ، فإن الطبيعى المحقق لا يستطيع أن يعقلها أبداً ، وإذا أطل الإنسان على وكر من أوكار بعض الحشرات الضعيفة ، سمع بغاية الجلاء والوضوح صوت العناية الإلهية يرشد مخلوقاتها إلى أعمالها اليومية[1].

ويقول الدكتور : إيرفنج وليام ، معترفا بوجود الخالق الذى هدته إليه دراساته ، والتى أثبتت له أن المصادفة وحدها لا يمكن أن تفسر وجود هذا الكون : « أما بالنسبة إلى نفسى بوصفى أحد المشتغلين بالعلوم فإننى لا أستطيع أن أنفى قوانين المصادفة لأننى ألمس نتائجها فى كثير من أمور حياتنا اليومية ولا أستطيع كذلك أن أرفض النظريات المادية رفضاً باتاً ، لأن نجاح المشتغلين بالعلوم

---

١) مجلة منبر الإسلام عدد ٣ ١٣٨٢ ص ٦٧ .

يتوقف على مدى وصولهم إلى تفسيرات طبيعية للظواهر العويصة التى يدرسونها .

ولكننى أومن بوجود الله . إننى اعتقدت فى وجوده سبحانه لأننى لا أستطيع أن أتصور أن المصادفة وحدها تستطيع أن تفسر لنا ظهور الإلكترونات والبروتونات الأولى . أو الذرات الأولى، أو الأحماض الأمينية الأولى ، أو البروتوبلازم الأول ، أو البذرة الأولى ، أو العقل الأول .

إننى أعتقد فى وجود الله ، لأن وجوده القدسى هو التفسير المنطقى الوحيد لكل ما يحيط بنا من ظواهر هذا الكون التى نشاهدها »[1] .

ويقول الدكتور : ستانلى كونجدن[2] فى تدليله على وجود الله على إثر ملاحظته لشجيرة ورد مغروسة بجانب كوخ صغير ، مستنتجاً أن هذه الشجيرة لا بد أن يكون هنالك إنسان قد غرسها بجانب هذا الكوخ لينتفع بها ، وأنه لا يعقل أن تكون قد وجدت بجوار هذا الكوخ مصادفة: «منذ سنوات عديدة رأيت شجيرة ورد جميلة مزهرة نمت على جانب طريق منعزلة فى بنسلفانيا . وعندما

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٥٥ .

(٢) عالم طبيعى وفيلسوف .

مررت بالمكان بعد فترة من الزمن ، رأيت بجوار الشجيرة كوخا صغيراً تهدم ، وقد غطتها الأعشاب و بعض البقايا النباتية ... لقد أدركت بالبداهة أنه لا بد أن تكون هذه الشجيرة قد زرعها إنسان لينتفع بها بجوار ذلك الكوخ ، ومع أننى لم أر هذه الشجيرة عند زراعتها ، وليس لدى مرجع أستدل به على تاريخ غرسها ، فإننى لم أشك فى أنها قد زرعت فى مكانها وتحت ظروفها بوساطة الإنسان »[1] .

ثم يقول مدللا على أن "علوم الطبيعية لا تستطيع أن تصل إلى حقيقة الأشياء غير المادية :

« وكثيراً ما طلبت من تلاميذى أن يصفوا لى شيئاً غير مادى مثل الفكرة ، وطلبت إليهم أن يبينوا لى التركيب الكيموى للفكرة وطولها بالسنتيمترات ، ووزنها بالجرامات ، ولونها ، وضغطها وأن يصفوا لى شكلها وصورتها ، وقد عجزوا جميعاً عن تحقيق ذلك ، وصار من الواضح أنه لكى نصف شيئاً غير مادى ، لا بد من استخدام مصطلحات وأوصاف أخرى تختلف اختلافاً كبيراً عن المصطلحات التى نستخدمها فى دائرة العلوم . . . إن جميع مافى الكون يشهد على وجود الله سبحانه وتعالى ويدل على قدرته

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ١٨ .

وعظمته وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها ، حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية ، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادى الله وعظمته . ذلك هو الله الذى لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها ، ولكننا نرى آياته فى أنفسنا ، وفى كل ذرة من ذرات هذا الوجود ، وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته »[1] .

وصدق الله العظيم : « وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

العقل الإلكترونى وعظمة الله :

من مخترعات هذا العصر التى تعتبر آية فى الإبداع والتقدم فى العلم ، ما توصل إليه العلماء ، من تصميم جهاز يتركب من أنابيب خاصة وأجهزة دقيقة ، يقوم بالعمليات الحسابية المعقدة ، والرد على بعض الأسئلة التى توجه إليه كتابة ، على أساس نظريات وتصميمات خاصة يعرفها علماء ذلك الفن .

وحينما تم هذا الاختراع انطلق بعض الجهلة من أصحاب الفكر القاصر يعلنون : أنه لا إله . . لماذا ؟ لأن الإنسان قد توصل إلى

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٢٠ ، ٢٢ .

صنع إنسان عبقرى ، يستطيع أن يرد على أى سؤال يوجه إليه ، كما أنه يستطيع أن يعيش آلاف السنين بدون أن يعدو عليه الموت الذى يعدو على الإنسان . .

وكادوا يفرقون عجبا من هذا العقل المعجزة ! ونسوا فى غمرات هذا الشطط أن هذا العقل إنما هو من صنع أناس من بنى جنسهم ، صممته عقولهم — وعقولهم فقط — ولا يستطيع حيوان آخر أو جماد أن يصمم ذرة منه ، ومعنى ذلك أن هذا التصميم قد تم بواسطة عقول مفكرة ظلت السنين الطوال تدرس ،وتدرس، بمعاونة آلاف من العلماء الذين سبقوا ، ومهدوا الطريق ليتم هذا العمل بعد آلاف السنين .

وإذا سألت هؤلاء المعجبين : هل كان فى وسع الحمار — مثلا — أن يصمم هذا العقل ، أو هل كان فى وسع مصنع من المصانع أن يصنع قطعة واحدة منه بدون إشراف عقل مفكر ، لأجابوك على الفور : قطعاً لا . . .

فإذا تساءلت : لماذا ؟ لقالوا لك . لأن الإنسان وحده هو الذى يستطيع أن يفكر ويرتب ثم يصمم ويبتكر بما أوتى من عقل جبار وبديهة حاضرة .

وهنا نسأل : أليس فى وسع العقل الإنسانى أن يصمم جهازاً

أبدع من هذا الذى صممه ؟ وبديهى أن الرد سيكون بالإيجاب .

ومعنى ذلك أيضاً أن هذا العقل الإنسانى أبدع وأعظم من ذلك الجهاز الأصم الذى تؤكد البديهة أنه لا يمكن أن يصمم بدون عقل مفكر .

ثم نسأل أخيراً : هل يعقل أن يصمم ذلك العقل الجبار الذى يتمتع به الإنسان بدون مصمم عاقل ، حكيم ، خبير ، ولكن : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » .

أما العلماء الراسخون فى علمهم ، فلم يزدهم علمهم إلا إيماناً ، ولا انتصارهم إلا تواضعاً وخشوعا أمام عظمة الخالق .

ومن أول هؤلاء الأستاذ كلود . م . هاثاواى[1] مصمم العقل الإلكترونى .

يقول : « لقد اشتغلت منذ سنوات عديدة بتصميم مخ إلكترونى يستطيع أن يحل بسرعة بعض المعادلات المعقدة المتعلقة بنظرية « الشد فى اتجاهين » ولقد حققنا أهدافنا باستخدام مئات من الأنابيب

---

(١) أخصائى الآلات الكهربية والطبيعية للقياس .

المفرغة والأدوات الكهربائية والميكانيكية والدوائر المعقدة ، ووضعها داخل صندوق بلغ حجمه ثلاثة أضعاف حجم أكبر بيانو ولا تزال الجمعية الاستشارية « فى لانجلى فيد » تستخدم هذا المخ الإلكترونى حتى الآن ، وبعد اشتغالى بهذا الجهاز سنة أو سنتين ، وبعد أن واجهت كثيراً من المشكلات التى تطلبها تصميمه، ووصلت إلى حلها ، صار من المستحيلات بالنسبة إلى أن يتصور عقلى أن مثل هذا الجهاز يمكن عمله بأية طريقة أخرى غير استخدام العقل والذكاء والتصميم .

وليس العالم من حولنا إلا مجموعة هائلة من التصميم والإبداع والتنظيم ، وبرغم استقلال بعضها عن بعض ، فإنها متشابكة متداخلة ، وكل منها أكثر تعقيداً فى كل ذرة من ذرات تركيبها من ذلك المخ الذى صنعته . فإذا كان هذا الجهاز يحتاج إلى تصميم ، أفلا يحتاج ذلك الجهاز الفسيولوجى ، الكيمى ، البيولوجى ،الذى هو جسمى والذى ليس بدوره إلا ذرة بسيطة من ذرات هذا الكون اللانهائى فى اتساعه وإبداعه ، إلى مبدع يبدعه ؟ »[١] .

وهكذا نرى البون شاسعاً بين العلماء ومدعى العلم ، فهذا العالم

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٩٠ .

الذى قام بتصميم العقل الإلكترونى بنفسه لم يغتر ولم يزده بعلمه، ولكنه وجد نفسه ضئيلا بين عظمة الله وقدرته .

أما أولئك فقد سارعوا إلى نفى وجود إله بمجرد أن سمعوا أن هنالك عقلا إلكترونياً قد صنعه إنسان عبقرى !!

وصدق الله العظيم : «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون. إنما يتذكر أولو الألباب» .

ويبين الدكتور روبرت هورثون كاميرون [1] البون الشاسع بين الإنسان الحى المفكر ، وبين الأجهزة الآلية البكماء التى يصنعها الإنسان من مادة ميتة بيديه . فيقول : « من الممكن تصميم آلة تلعب الشطرنج ، ولكن هذه الآلة لن تستطيع أن تسعد بما تحقق من النجاح ، أو تشمت فى خسارة اللاعب الآخر أو تحزن على ما وقعت فيه من أخطاء » [2] .

ويقول الأستاذ إيرل تشيستر [3] « فدراسة الظواهر الكونية دراسة بعيدة عن التحيز ، وتتسم بالعدل والإنصاف قد أقنعتنى بأن لهذا الكون إلهاً ، وأنه هو الذى يسيطر عليه ويوجهه . أى إن

---

(١) أخصائى الرياضيات .

(٢) الله يتجلى فى عصر العلم ص ١٢٨ .

(٣) عالم الرياضيات والفيزياء .

هنالك سيطرة مركزية هى سيطرة الله وقوته التى توجه هذا الكون .... وهنالك ظواهر عديدة تدل على وحدة الغرض فى هذا الكون وتشير إلى أن نشأته والسيطرة عليه لا بد أن تتم على يدى إله واحد لا آلهة متعددة »[١] .

وصدق الله العظيم : «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم» . آل عمران — ١٨ :

أما عقل الإنسان المعجز إلى أبعد حدود الإعجاز فيحدثنا عنه الدكتور جودسن هريك . فيقول . « إن الدماغ الإنسانى الذى يبلغ وزنه ألفاً وأربعمائة جرام ، غريب التركيب ، بعيد عن كل تصور أو خيال فلو جمعنا كل ما فى العالم من أجهزة التلغراف والتليفون ، والرادار والتلفزيون ، واستطعنا أن نحولها جميعاً إلى قطعة صغيرة بحجم الدماغ ، فإنها لا تبلغ فى تعقيدها درجة دماغ الإنسان »[٢] .

هذه هى آراء العلماء الذين أنصفوا أنفسهم ، وكانوا صادقين مع ضمائرهم ، فرأوا حكمة الخالق ممثلة فى كل شىء ، ولم تزدهم أبحاثهم إلا إيماناً ، ولا علمهم إلا طمأنينة ، ولا اختراعاتهم إلا يقيناً بأن

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ١٢٨ .

(٢) الله والعلم الحديث ص ٦٩ .

الإنسان لا يستطيع أن يخلق ذرة تتمتع بحياة وحركة ، لأنه مخلوق بقدرة الخالق الأعظم .

وصدق الله العظيم : « يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب » . الحج — ٧٣ .

الرادار وعظمة الله :

من الأجهزة الدقيقة ، التى لم يتوصل العلم إلى صنعها إلا فى السنوات الأخيرة « جهاز الرادار » الذى يستطيع أن يلتقط صورة الطائرة فى أعالى الجو ، ويحدد اتجاهها والمسافة التى تبعد بها عنه ، كما أنه يستطيع أن يحدد سير الغواصات فى أعماق البحار ويحدد موقعها وهى على مسافة كبيرة من البعد ، وكل ذلك على أسس معروفة من قوانين الصوت والضوء والكهرباء ، والحق أنه جهاز عجيب ، ولكن لا ننسى أنه من صنع أيدينا ، فلا داعى للعجب إذن .

لأننا إذا رأينا إبداع الخالق فسوف نجد أن هذا الجهاز الذى توافر على صنعه آلاف العلماء والعمال لا يساوى شيئاً مع كتلته

الهائلة ، إذا ما قارناه بأصغر جهاز فى حيوان صغير مثل الخفاش .

يقول الأستاذ عبد الرزاق نوفل « ظهر فى السنوات الأخيرة رأى يقرر أن الخفاش يرسل اهتزازات ترد إليه بالتصادم مع أى جسم يقابله فيحس به ، وإن نظرية معرفته بالعقبات دون رؤياها ، هى نفس نظرية الرادار الذى اخترع فى عصر الذرة . فانظر كيف أن ما تفتقت عنه حيل العلماء العصريين من اكتشافات بهرت العالم . موجود فى الخفاش !! »

ويقول الدكتور واين أولت : « هل تم اختراع جهاز الرادار نتيجة المصادفة أم عن طريق التصميم والاختراع؟ ثم هل تم تكوين جهاز الرادار الموجود بجسم الخفاش والذى لا يحتاج من الحيوان إلى الانتباه ولا يتطلب منه إصلاحاً ، والذى يستطيع أن يورثه لذريته عبر الأجيال . نقول هل تم كل ذلك عن طريق المصادفة أم عن طريق التصميم والإبداع ؟ إن الخبرة العلمية للإنسان تقوم على التصميم وعلى إدراك الأسباب ، وعلى ذلك فإن المشتغل بالعلوم هو أول من يجب عليه التسليم تسليما منطقياً بوجود عقل مبدع لاحدود لعلمه أو قدرته ، موجود فى كل مكان ، يحيط مخلوقاته برعايته ، سواء فى ذلك الكون المتسع أو كل ذرة أو جزىء من جزيئات هذا

الكون اللانهائية فى تفاصيلها الدقيقة »[1] .

وهناك حيوانات كثيرة لديها أجهزة حساسة لم يتوصل العلم إلى معرفة كنهها حتى الآن ، فكثير من الحيوانات تحس بالزلازل قبل وقوعها ، وتفزع لذلك ، وتصدر أصواتاً أو حركات تنبىء عن وقوع الزلازل قبل أن تقع ، ولم تخطىء مرة فى ذلك .

وقد قرأت أسطراً فى مجلة المصور عدد ١٤/٩/١٩٦٢ هذا نصها « والطاووس أيضاً ينذر اليابانيين بالزلازل قبل وقوعها ، إنه يحس بجهاز مجهول فى أعصابه باقتراب الزلازل فيصيح . . . ويصيح وراءه الخائفون من الزلازل !! كما أن هناك نوعاً من السمك يسميه اليابانيون سمك القط ، إذا ما أحس بالزلازل خرج من أعماق الماء ، ولجأ إلى الشاطىء يطلب الأمان ، وهو يحس بالزلزال قبل أن يقع بمدة ، فيكون تجوله على الشواطىء نذيراً بوقوع الزلازل » .

وصدق الله العظيم « صنع الله الذى أتقن كل شىء » .

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ١٣٤ .

الفصل الخامس

مع الكيمياء

مع الكيمياء

تتعلق دراسة الكيمياء بدراسة عناصر المواد وتركيبها ، وخواصها ، وتفاعلاتها ، كما أنها تهتم بوجه خاص بدراسة العناصر المكونة لهذا الكون الذى نعيش فيه ، وكيف تألفت هذه العناصر لتكوّن هذا العالم اللانهائى ، كما تعنى الكيمياء الحيوية بدراسة تفاعل العناصر الكيماوية والمواد الغذائية داخل جسم الإنسان والحيوان والنبات لتمنحه الطاقة اللازمة للحياة ، كما تعنى كيمياء التربة بدراسة تركيب التربة والمواد التى تحتوى عليها من معادن وغيرها لاستغلالها فى رفاهية الإنسان وسعادته .

ودراسة الكيمياء بما تقوم به من تجارب حسية ، واختبارات معملية ، تعطى نتائج يقينية للقائمين بهذه الأبحاث فى معاملهم بأن هنالك إلهاً يشرف على هذه العناصر ويحفظ ترتيبها وثباتها .

يقول الدكتور : جون كليفلاند كوثران « وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد فى سبيل الزوال أو الفناء ، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة ، والآخر بسرعة ضئيلة ، وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية ، ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية إذ أن لها بداية ، وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن

بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية . بل وجدت بصورة فجائية »(١) .

وصدق الله العظيم « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » . « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » .

ثم يقول الدكتور كليفلاند : « وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذى نشأت فيه هذه المواد وعلى ذلك فإن هذا العالم المادى لابد أن يكون مخلوقا ، وهو منذ أن خلق يخضع لقوانين وسنن كونية محدودة ليس لعنصر المصادفة بينها مكان » .

« فإذا كان هذا العالم المادى عاجزاً عن أن يخلق نفسه أو يحدد القوانين التى يخضع لها ، فلابد أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادى ، وتدل الشواهد جميعاً على أن هذا الخالق لابد أن يكون متصفاً بالعقل والحكمة ، إلا أن العقل لا يستطيع أن يعمل فى العالم المادى كما فى ممارسة الطب والعلاج السيكولوجى دون أن يكون هنالك إرادة ، ولابد لمن يتصف بالإرادة أن يكون موجوداً وجوداً ذاتياً . وعلى ذلك فإن النتيجة المنطقية الحتمية التى يفرضها

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٢٧ .

علينا العقل ليست مقصورة على أن لهذا الكون خالقاً فحسب، بل لا بد أن يكون هذا الخالق حكيما، عليما، قادراً على كل شيء، حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره، ولا بد أن يكون هذا الخالق دائم الوجود تتجلى آياته فى كل مكان. وعلى ذلك فإنه لا مفر من التسليم بوجود الله خالق هذا الكون وموجهه»[1].

الماء والقوانين العلمية:

تبين لنا الكيمياء حكمة الخالق وإبداعه ورحمته بنا فى شريان الحياة وهو «الماء» الذى يقول الله تبارك وتعالى عنه: «وجعلنا من الماء كل شيء حى» ومعجزة الماء وحكمة الله فيه أنه خرج عن القوانين الطبيعية والسنن الكونية، ووجد على صورة غير الصورة التى كانت متوقعة له بالنسبة إلى مكوّناته.

يقول الدكتور توماس دافيز باركس: «ولكن هذا النظام الذى نشاهده فى العالم من حولنا ليس إلا مظهراً من مظاهر القدرة على كل شيء فحسب، بل إنه يتصف فوق ذلك بالحكمة والاتجاه نحو تحقيق صالح الإنسان، مما يدل على أن اهتمام الخالق؛

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٢٧.

عباده، لا يقل عن اهتمامه بالسنن والقوانين التي تنظم هذا الوجود...

انظر من حولك إلى الحكمة البالغة التي ينطوى عليها خروج بعض الظواهر عن العادة أو المألوف ، فالماء مثلا يتوقع الإنسان من وزنه الجزيئي (١٨) أن يكون غازياً تحت درجة الحرارة المعتادة والضغط المعتاد ، فالنوشادر مثلا ووزنها الجزيئي (١٧) تكون غازية عند درجة حرارة ناقص ٥٩ ولذلك فإن وجود الماء على الحالة السائلة ، في درجة الحرارة المعتادة يجعل الإنسان يقف ويفكر [1] ...

وللماء فوق ذلك كثير من الخواص الأخرى ذات الأهمية البالغة والتي إذا نظر الإنسان إليها في مجموعها وجدها تدل على التصميم والتدبير ، فالماء يغطي نحو ثلاثة أرباع سطح الأرض وهو بذلك يؤثر تأثيراً بالغاً على الجو السائد ودرجة الحرارة .

ولو تجرد الماء من بعض خواصه لظهرت على سطح الأرض تغيرات في درجة الحرارة تؤدي إلى حدوث الكوارث . . . وللماء خواص أخرى فريدة في نوعها ، وتدل كلها على أن مبدع هذا الكون قد رسمه وصممه بما يحقق صالح مخلوقاته . فالماء هو المادة

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص ٤٥ .

الوحيدة المعروفة التى تقل كثافتها عندما تتجمد ، ولهذه الخاصية أهميتها الكبرى بالنسبة للحياة .

إذ بسببها يطفو الجليد على سطح الماء عندما يشتد البرد ، بدلا من أن يغوص إلى قاع المحيطات والبحيرات والأنهار ، ويكون تدريجياً كتلة صلبة لا سبيل إلى إخراجها وإذابتها ، ويكون الجليد الذى يطفو على سطح البحر طبقة عازلة تحفظ الماء الذى تحتها فى درجة حرارة فوق درجة التجمد ، وبذلك تبقى الأسماك وغيرها من الحيوانات المائية حية . وعندما يأتى الربيع يذوب الجليد بسرعة . . . وإننى أجد شخصياً أن تفسير هذه الظواهر والعجائب بنسبتها إلى قدرة إله حكيم خبير ، وتصميم خالق علوى يعد تفسيراً مرضياً للنفوس ومقنعاً للعقول .

إننى أرى فى كل ظاهرة من هذه الظواهر أكثر من مجرد الخلق والتدبير المجرد عن العاطفة ، إننى ألمس فوق ذلك كله محبة الخالق لخلقه واهتمامه بأمورهم »[1] .

وصدق الله العظيم : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير » . الحج — ٦٣

---

(١) المرجع السابق ص ٤٦ .

المصادفة ونشأة الكون :

إن الكيمياء تثبت لنا بالأدلة القاطعة استحالة نشأة الحياة والكون عن طريق المصادفة ، أو المادة العمياء ، فتركيبات الأحماض الأمينية التى تكون البروتينات التى تكون خلايا الكائنات الحية لا يمكن أن يتم تركيبها عن طريق المصادفة إلا باحتمال واحد فى عدد لا يمكن النطق به .

يقول الدكتور فرانك إللن « ولننظر الآن إلى الدور الذى تستطيع أن تلعبه المصادفة فى نشأة الحياة . إن البروتينات من المركبات الأساسية فى جميع الخلايا الحية ، وهى تتكون من خمسة عناصر هى : الكربون ، والأيدروجين ، والنيتروجين ، والأوكسيجين ، والكبريت ، ويبلغ عدد الذرات فى الجزىء البروتينى الواحد ٤٠٠٠ ذرة ، ولما كان عدد العناصر الكيموية فى الطبيعة ٩٢ عنصراً ، موزعة كلها توزيعاً عشوائياً ، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكى تكون جزيئاً من جزيئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التى ينبغى أن تخلط خلطاً مستمراً لكى تؤلف هذا الجزىء ، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكى يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزىء الواحد . وقد قام العالم الرياضى السويسرى — تشارلز يوجين جاى —

بحساب هذه العوامل جميعاً ، فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزىء بروتيني واحد إلا بنسبة واحد إلى (١٠^١٦٠) أى بنسبة ١ إلى رقم عشرة مضروباً فى نفسه ١٦٠ مرة ، وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات ، وينبغى أن تكون كمية المادة التى تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزىء واحد ، أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات ، ويتطلب تكوين هذا الجزىء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدرها العالم السويسرى بأنها عشرة مضروبة فى نفسها ٢٤٣ مرة من السنين (١٠^٢٤٣) .

« ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيماوية عديمة الحياة ، ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذى لا ندرى من كنهه شيئاً ، إن العقل اللانهائى . وهو الله وحده الذى استطاع أن يدرك ببالغ حكمته أن مثل ذلك الجزىء البروتيني يصلح لأن يكون مستقراً للحياة ، فبناه وصوره وأغدق عليه سر الحياة »[١] .

وصدق الله العظيم : « وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ١١ .

من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » .

ويقول الدكتور كريسي موريسون : « إن الأوكسيجين ، والهيدروجين ، وثاني أكسيد الكربون ، والكربون ، سواء أكانت منعزلة أم على علاقاتها المختلفة مع بعضها ، هي العناصر البيولوجية الرئيسية . وهي على هذا ، الأساس الذي تقوم عليه الحياة ، غير أنه لا توجد مصادفة من بين عدة ملايين تقضي بأن تكون كلها في وقت واحد وفي كوكب سيار واحد بتلك النسب الصحيحة اللازمة للحياة ، وليس لدى العلم إيضاح لهذه الحقائق ، أما القول بأن ذلك نتيجة المصادفة ، فهو قول يتحدى العلوم الرياضية »[1] .

نعم . إن المصادفة لا تستطيع أن تفعل شيئاً ، وما هي المصادفة ؟ هي كلمة من اختراعنا نحن البشر ، مجرد كلمة أطلقناها على ظواهر شاذة لا تحدث إلا نادراً . فهل يعقل أن كلمة من اختراع البشر تخلق البشر أنفسهم ، بل الكون جميعاً . ما أسخفه تفكير ذلك الذي يجر إلى خصيص المهانة ، وطمس الفكر ، وقلب الحقائق .

وصدق الله العظيم : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » .

---

(١) العلم يدعو للايمان ص ٧١ .

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون». « هل من خالق غير الله » .

تنظيم الهواء :

ربما أننا كنا نتمنى لو أن كمية الأوكسيجين فى الهواء الجوى كانت ضعف ماهى عليه الآن ، حتى نستنشق أكبر كمية منه وبذلك نزداد حيوية ونشاطاً ، وينمو زرعنا سريعاً وتكبر حيواناتنا وتسمن ! أو لو أن كمية غاز الهليوم مثلا كانت أكبر من كميتها الحالية حتى نستفيد بها فى تقدمنا الحضارى ، أو لو أن كمية الأرجون ، والنيون ، والكنسيوم كانت بكميات أزيد وبنسب أكبر مما هى عليه فى الهواء ، حتى نستطيع أن نحول ظلام الليل الدامس إلى شعلة من النور ذى الألوان الزاهية المتلألئة .

أقول ، لربما تمنينا ذلك كله ، لأن عقولنا القاصرة لاتدرك لأول وهلة حكمة المنظم فى تنظيمه ودقة الموزع لعناصر الحياة فى توزيعه سبحانه وتعالى .

والهواء بهيأته الحالية ، وكميته ومايشتمل عليه من العناصر بنسبها الثابتة ، ليدل دلالة قاطعة على وجود إله حكيم لهذا الوجود ، محيط بعنايته كل مافيه من مخلوقات ، بماهيأه لهم من سبل الحياة . ولايعرف هذه الأسرار إلا العلماء الراسخون فى العلم .

يقول الدكتور كريسى موريسون : « وكان اتحاد العناصر كاملا لدرجة أن ماترك وهو الهواء المكون من الأوكسيجين والنيتروجين على الأخص لايزيد على جزء من مليون جزء من كتلة الكرة الأرضية ، فلماذا لم يمتص كله أو لماذا لم يكن بنسبة أكبر كثيراً من تلك النسبة ؟ فى كلتا الحالتين كان الإنسان لا يمكن أن يوجد على ظهر الأرض ، وإذا كان الوجود ممكناً تحت ضغط آلاف الأرطال على البوصة المربعة ، فقد كان من المحال أن يتطور الإنسان . . . ولو كان الهواء أرفع كثيراً مما هو فإن بعض الشهب التى تحترق الآن كل يوم بالملايين فى الهواء الخارجى ، كانت تضرب فى جميع أجزاء الكرة الأرضية ، وهى تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلا فى الثانية ، وكان فى إمكانها أن تشعل كل شىء قابل للاحتراق ، ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض ، ولكانت العاقبة مروعة ، أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة كان يمزقه إرباً من مجرد حرارة مروره[1] . إن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيميائى التى يحتاج إليها الزرع ، والتى تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات ، دون أن تضر بالإنسان ، إلا إذا عرض نفسه لها مدة أطول من

(١) العلم يدعو للإيمان ص ٦٢ .

اللازم ، وعلى الرغم من الانعاثات الغازية من الارض طول الدهر ، ومعظمها سام ، فإن الهواء باق دون تلويث فى الواقع ، ودون تغيير فى نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان . . . ولوكان الأوكسيجين بنسبة ٥٠٪ مثلا أو أكثر من الهواء بدلا من ٢١٪ فإن جميع المواد القابلة للاحتراق فى العالم تصبح عرضة الاشتعال ، لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لابد أن تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر . . وإذا امتص الأوكسيجين الطليق ذلك الجزء الواحد من عدة ملايين من مادة الأرض فإن كل حياة حيوانية تقف على الفور . . . وعجلة الموازنة العظيمة هى تلك الكتلة الفسيحة من الماء أى المحيط الذى استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل والنباتات ، وأخيراً الإنسان نفسه . فدع الذى يدرك ذلك يقف فى روعة أمام عظمته ، ويقر بواجبانه شاكرا »[1] .

وصدق الله العظيم : « سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى . والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى» . سورة الأعلى ١ — ٥ .

وعلماء الكيمياء يقفون مشدوهين أمام إبداع الله الممثل فى الجهاز الهضمى ذلك المعمل العجيب ، ومايقوم به من عمليات كيماوية

---

(١) العلم يدعو للإيمان ص ٦٤ .

معقدة يعجز عن جزء منها أدق معمل اخترعته عقول البشر، وهذا الجهاز يتكون من آلات بسيطة فى مظهرها، عظيمة، بل معجزة فيما تقوم به من أعمال، فى دقة متناهية، وتناسق تام، إن حادت عنه لسبب أو لآخر اختل الجسم واعترته الأمراض والعلل.

يقول الأستاذ عبد الرزاق نوفل: «ويتم هضم الغذاء أى تحويله من مواد صلبة معقدة إلى أخرى سائلة سهلة الامتصاص بعمليات دقيقة غاية الدقة، تقوم خير دليل على وجود الله، فكل ما يأكله الإنسان من صلب جامد، وسائل ولزج، ومر وحلو، وثقيل وخفيف، وحريف ولاذع، وساخن وبارد، لحوم وخضر، وخبز وفاكهة، وزيوت وشحوم، وبقول وأبصال... مطبوخ أو نيء كلها تهضم بمواد واحدة وطريقة واحدة، مواد اختلفت تراكيبها، وتباينت تراكيزها يتلقاها جسم الإنسان أدق معمل كيماوى عرف على وجه البسيطة، فيدفعها فى طريقها المرسوم لتصب عليها الغدد إفرازاتها الحمضية، وعصاراتها ذات التركيز المقدر، الذى لو قل قليلا لما هضم الطعام، ولو زاد زيادة طفيفة لاحترق الجسم، فسبحان الخالق العظيم».

ويبين الدكتور عفيفى محمود أهمية الماء القصوى بالنسبة لكل شيء حى فيقول: هل عدت مرة من مصيفك لتجد الزهور التى

تزين شرفة مسكنك وقد تدلت على عيدانها ونكست تيجانها ، وذبلت أوراقها ، وبهت لونها ، بعد أن انقطع عنها الماء فترة غيابك عنها ؟

هل تعرضت مرة لتجربة الظمأ الشديد أو تصورت مايعترى الظمآن من جفاف الحلق . . وزيغ البصر . . وعدم القدرة على الكلام أو الحركة ، والرغبة الملحة فى اعتصار الحجر ولعق التراب ؟ إن كل هذه الأعراض إن هى إلا صراخ الخلايا الحية فى طلب الماء !

« لقد خلق الله الأحياء جميعاً ، وجعل الماء ضرورة لاستمرار حياتها ، كما جعله من قبل ضرورة لبث الحياة فيها . . فنحن وكل ماحولنا من حيوان أو نبات ، راق أو دنىء ، لم نكتسب صفة الحياة إلا بامتزاج الماء بذرات أجسادنا .. ولا نستطيع أن نمارس الحياة فى أية صورة من صورها أو أى مظهر من مظاهرها إلا فى وجود الماء . .

وفى هذا شاهد على قدرة الخالق الأعظم .. تلك القدرة القادرة التى لايتسامى إلى إعجازها إيمان المؤمنين ، ولاينال من حقيقتها إنكار المنكرين ! »[1] وصدق الله العظيم . « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » . « وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلايؤمنون » .

---

(١) مجلة منبر الإسلام عدد ٢ سنة ١٣٨ ص ٧٩ .

الفصل السادس

مع علم الأحياء

مع علم الأحياء

تتعلق دراسة علم الأحياء بدراسة الكائنات الحية من حيوان ونبات، من حيث تركيبها، ووظائفها وطرق معيشتها، ونموها وتكاثرها، كما أنها تتعلق بدراسة الخلية الحية المكونة لجسم الحيوان والنبات، والتي تعتبر وحدة البناء في هذه الأحياء، وكيف تؤدي هذه الخلايا وظائفها لتحافظ على استمرار حياة الكائن الحي. وعلى قمة الأحياء التي يهتم هذا العلم بدراستها هو ذلك الكائن الذي قدر له أن يكون سيد المخلوقات وهو « الإنسان ».

فعلم الأحياء يهتم اهتماماً كبيراً بدراسة الإنسان ونشأته وتطوره واحتياجاته، وعلاقاته مع ما يحيط به من كائنات، كما أنه يهتم اهتماماً خاصاً بدراسة مخ الإنسان الذي يميزه على سائر الحيوانات الأخرى، والذي بفضله استحق أن يكون خليفة الله على الأرض.

ودراسة علم الأحياء تقوم على التجارب العملية الملموسة، كما أنها تؤمن بالظواهر غير المرئية التي تسيطر على الأحياء وتحكم سير حياتها، لذلك.. فعلم الأحياء يسلم بوجود أشياء غير مادية وهو لذلك من العلوم التي تؤدي دراستها إلى الإيمان بخالق هذا الكون،

الذى لا تستطيع الأبصار أن تدركه ، ولكنها ترى بدائع صنعه فى مخلوقاته الحية .

كيف بدأت الحياة :

تضاربت الآراء ، وتشعبت الأقاويل ، وكثرت النظريات ، فى الإجابة على هذا السؤال . فالماديون الذين لا يريدون أن يرجعوا إلى فطرتهم ويعترفوا بوجود الله سبحانه وتعالى ، الذى منّ علينا بالحياة وما فيها من بهجة ، يعزون نشأة الحياة إلى حد العوامل الآتية ، أو بأحد الطرق الآتية على الأصح :

١ ــ رأى يقول بأن الحياة جاءت « هكذا » مع الأرض عند انفصالها عن الشمس .

وعدم صحة هذا الرأى شىء بديهى ، فكيف نتصور أن توجد حياة فى وسط درجة حرارته تبلغ ٢٠٠٠° مئوية . مع أن هذه الدرجة من الحرارة يكون كل شىء معها فى صورة غازية ملتهبة ؟

٢ ــ رأى آخر يقول : إن جرثومة الحياة جاءت إلى الأرض من كوكب آخر .

وهذا الرأى لا يفسر لنا ــ إن كان صحيحاً ــ إلا المصدر

الذى جاءت منه الحياة فى صورة حية ، أما نشأتها فلم يفدنا عنها بشىء .

يقول الدكتور كريس موريسون[١] : « وقد افترض أن الحياة قد جاءت من بعض الكواكب فى شكل جرثومة انسلت دون أن يصيبها تلف ، وبعد أن بقيت زماناً غير محدود فى الفضاء ، استقرت على الأرض ، ولكن كان من العسير على تلك الجرثومة أن تبقى حية فى درجة حرارة الصفر المطلق [٢] فى الفضاء ، وإذا استطاعت البقاء رغم ذلك فإن الاشعاع الكثيف للموجة القصيرة كان يقتلها . فإذا كانت قد بقيت حية رغم ذلك فلا بد أنها وجدت لنفسها المكان الملائم وربما كان المحيط ، حيث أدى اتفاق مدهش فى الظروف إلى توالدها وبداية الحياة على الأرض ، وفضلا عن ذلك يعود بنا هذا الفرض خطوة أخرى فيما نحن بصدده ، لأننا يمكننا أن نسأل : وكيف بدأت الحياة على أى كوكب من الكواكب ؟ »[٣] .

---

(١) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك .

(٢) الصفر المطلق [— ٢٧٣° م]

(٣) العلم يدعو للايمان ـ ص ٩٤ .

٣ — رأى ثالث يقول إن الحياة بدأت من مصادفة سعيدة لتفاعل بعض العناصر الكيماوية مع الماء والوقت الكافى ، الذى يلزم لهذا التفاعل .

وهذا الرأى يناقض العلم مناقضة تامة ، إذ أن العلم الحديث يقرر أن الحياة لا تنشأ إلا من حياة .

يقول الدكتور كريس موريسون : « لا يقدر الآن أحد أن يقول كما قال « هيكل » إنه لو أعطى ماء ومواد كيماوية ووقتاً كافياً ، لاستطاع أن يخلق إنساناً . . [1] والطبيعة لم تخلق الحياة ، فإن الصخور التى حرقتها النار ، والبحار الخالية من الملح ، لم تتوفر فيها الشروط اللازمة . . . [2] أما المادة فإنها لم تفعل قواعد الألفة الكيميائية ، وقوة الجاذبية ، وتأثيرات درجة الحرارة والدوافع الكهربائية . والمادة ليست مبتكرة ، أما الحياة فإنها تأتى إلى الوجود بتصميمات وتكوينات جديدة رائعة . . [3] بيد أنك قد تقول الآن إن كل ما ورد فى هذا الفصل لا يفسر لنا كيف بدأت

---

(١) العلم يدعو للإيمان ص ٤٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٦ .

الحياة . أى كيف جاءت إلى هذه الأرض ، والكاتب لا يعرف كيف ، ولكنه يؤمن بأنها جاءت كتعبير عن القوة الإلهية ، وبأنها ليست مادية . . »[١] .

وإذا ما انطلق الماديون بترهاتهم التى لا تستند إلى عقل أو منطق ، زاعمين أن الحياة أوجدتها المادة الميتة نفسها ، وإن هى إلا فلتة من طبيعة الكون ستعود يوماً إلى حالتها الطبيعية ، لأن الحالة الطبيعية للكون هى السكون الأبدى ، كما يزعمون . فإن العلم ينبرى لهم ليدحض هذه الترهات بمنطق سليم وحجة بالغة ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه . فكيف تنشأ الحياة من مادة عمياء ، لا حياة فيها ولا حراك ؟

يقول الدكتور كريسى موريسون : « والحياة تمنح لمخلوقاتها الفرح لكونها حية ، فالحمل يرتع ويقفز وهو لا يدرى لماذا ؟

والحياة تلون عيني الطفل وتمنحهما بريقاً ، وتصبغ خديه ، وتبعث بالضحك إلى شفتيه . أما المادة فلا تبتسم أبداً . والحياة تنتج الحياة إذ تعطى اللبن لسد الحاجات العاجلة متوقعة هذه الضرورة ، ومتأهبة لما يجيء من حوادث » . . [٢] « وأما ما هى الحياة . فذلك ما لم يدره إنسان

(١) العلم يدعو الايمان ص ١٠١ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٠ .

بعد فليس للحياة وزن ولا حجم . إن الحياة ليست إلا أداة تخدم مقاصد الخالق سبحانه ، وعلى هذا فالحياة باقية كمشيئته تعالى » .

ويقول الدكتور رسل تشارلز آرتست : « أما القوة أو القوى التي تجعل هذه الجبلة (البروتوبلازم) تتحرك ، والتي ينشأ عنها هذا التيار المستمر ، فهي ما لا نعرفه معرفة اليقين وما لا نستطيع أن نفسره في حدود معرفتنا الحالية تفسيراً صحيحاً »[١] .

وصدق الله العظيم : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

نظرية التطور

يأخذ الماديون الملحدون نظرية التطور بفهم مشوش وطريقة مغرضة ، ومغالطة واضحة مما أدى إلى الخروج بها عن قصد صاحبها الذي كانت دراساته مبنية على البحث العلمي والمشاهدات المتكررة، حيث طاف العالم ليدرس الحيوانات المختلفة ، تحت الظروف المختلفة . ونتائج بحثه كانت مجرد فرض علمي قابل للتعديل والإضافة ، بل قابل للنفي كليه إذا ما ثبت عكس هذا الفرض .

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص ٧٦ .

أما المـاديون فيقولون : مادام البقاء للأصلح ، وما دامت الضرورات تنتج ما يحتاج إليه الـكائن الحى ، فإنه لا داعى لوجود إله منظم لحياة الـكائنات ! وما دام الإنسان قد تطور عن قرد ، فلاداعى لما يصفه به الشعراء والفلاسفة ، وماتتحدث به عنه الـكتب السماوية ، من السمو والجمال ، وقوة الذكاء ، وهو فى نظرهم متطور عن حيوان حقير ، فهو أيضاً كذلك ، لا يمتاز عن الحيوان بشىء حتى قال قائلهم وهو « بوشنر » : « ليس الإنسان إلا نتيجة المادة ، وما هو بذلك الـكائن الذى يصفه الأخلاقيون ، فما له أدنى خاصية ممتازة . . »

أما العلماء الذين تمكنوا من العلم ، فينفون تطور الإنسان عن قرد ، ويأخذون التطور على أنه سنة من سنن الـكون ، ودليل من الأدلة الحية على حكمة الخالق .

يقول الدكتور كريسى موريسون : « الإنسان حيوان من الطليعة وتـكوينه يشبه تـكوين فصائل السيميا ، ولـكن هذا الشبه الهيكلى ليس بالضرورة برهاناً على أننا من نسل أسلاف سيميائية أو أن تلك القرود هى ذرية منحطة للإنسان ، ولا يمكن أحداً أن يزعم أن سمك القد Cod قد تطور من سمك الحساس Haddock ، وإن يكن كلاهما يعيش فى المياه نفسها ، ويأكل الطعام نفسه ، ولها

عظام تكاد تكون متشابهة ، وإنما يعنى ذلك ببساطة أنه فى وقت ما عند بداية التكييف كانت هناك ضرورة متوازية لتنظيم كل من النوعين . إن العلم يشير إلى إبهام الإنسان ، وقدرتها على الإمساك بالعدد والأسلحة ، ويعد ذلك أصلا لتقدم الإنسان وأن إبهام القرد التى لا نفع لها ، لهى برهان قاطع على أن إبهام الإنسان لا يمكن أن تكون قد جاءت من إبهام قرود السيميا التى تعيش على الأشجار ، تلك الإبهام المخصصة لهذه المعيشة ، ذلك أن الطبيعة لا تعيد أبداً تيسيراً قد فقد ، والحصان الذى يجرى الآن على أصبع شديدة التخصص ، لا يمكن أبداً أن يستعيد تلك الأصابع التى فقدها على كر الزمن ، على أننا لا ينبغى لنا أن نشغل أنفسنا بشكل جدى أكثر من اللازم ، بما حدث لأسلافنا منذ مليونى جيل على الأقل ومع هذا يبدو أن البحث عن الحلقة المفقودة — سوف يظهر عبثه »[1] .

ويبين الدكتور إدوارد ليثر كيل[2] حقيقة التطور ودلالته ، على أنه ما هو إلا مبدعاً من مبدعات الخالق ، وأنه مجرداً عن نسبته إلى الخالق لا يفسر لنا شيئاً مطلقاً .

يقول الدكتور إداورد : « الانتخاب الطبيعى هو أحد

(١) العلم يدعو للايمان ص١٤٢

(٢) أخصائى علم الحيوان والحشرات .

العوامل الميكانيكية للتطور، كما أن التطور هو أحد عوامل عملية الخلق، فالتطور إذن ليس إلا أحد السنن الكونية أو القوانين الطبيعية، وهو كسائر القوانين العلمية الأخرى يقوم بدور ثانوى، لأنه هو ذاته يحتاج إلى من يبدعه، ولا شك فى أنه من خلق الله وصنعه، والكائنات التى تنشأ بطريق عملية الانتخاب الطبيعى قد خلقها الله أيضاً كما خلق القوانين التى تخضع لها، فالانتخاب الطبيعى ذاته لا يستطيع أن يخلق شيئاً، وكل ما يفعله هو أنه إحدى الطرق التى تسلكها بعض الكائنات فى سبيل البقاء أو الزوال عن طريق الحياة أو التكاثر بين الأنواع المختلفة، أما الأنواع ذاتها التى يتم بطريقها هذا الانتقاء فإنها تنشأ عن طفرات تخضع لقوانين الوراثة وظواهرها، وهذه القوانين لا تسير على غير هدى، ولا تخضع للمصادفة العمياء كما يتوهم الماديون أو يريدوننا أن نعتقد. إن الطفرات أو التغيرات الفجائية ليست مجرد خبط عشواء كما يدعى بعض الباحثين لفترة طويلة من الزمان، فالطفرات التى تحدد أحجام الأعضاء مثلا قد تؤدى كما ثبت من بعض البحوث الحديثة إلى صغر حجم الأعضاء المختصة، والانتخاب الطبيعى الذى يعتمد على الطفرات التى تتم بمحض المصادفة لا يقضى إلا على الأعضاء الضارة، ومع ذلك فإننا نشاهد أن الأعضاء المتعادلة التى ليس لها ضرر ولا نفع تتضاءل هى الأخرى مما يثبت أن الطفرات ليست دائماً عشوائية وأن التطور لا يعتمد على المصادفة العمياء، وعلى ذلك فإنه لا مفر

من التسليم بأن هنالك حكمة وتدبيراً وراء الخلق ووراء القوانين التى توجهه . ولا مفر لنا كذلك من التسليم بأن التطور ذاته قد صمم بحكمة وأنه يحتاج هو أيضاً إلى خالق يبدعه »[1] .

هذه هى نظرية التطور فى إيجاز ، وذلك هو رأى رجال العلم فيها . فهل بقى للجاهلين مجال ، ولمدعى العلم والسفسطة حجة ؟

ولكن . . لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ولهم أعين لا يبصرون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل . . . .

إلهام الأحياء

لاشك أن إلهام الأحياء من أكبر الأدلة على وجود الله الملهم سبحانه وتعالى ، فالحيوان يتصرف عن طريق الإلهام تصرفات لا تحكم له فيها ، بل إنه يفعل ذلك بدون أن يدرى لماذا يتصرف هذا التصرف ، حتى الإنسان نفسه ، الذى يحاول دائماً أن يعلل كل شىء يفعله ، والذى يستطيع أن يمتنع عن فعل بعض الأشياء بحريته وإرادته ، يقف مشدوهاً أمام قوة الإلهام التى لا يستطيع أن يفسرها .

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٣١ .

عاطفة الأمومة :

إن الإلهام أوضح ما يكون فى عاطفة الأمومة ، فالأم تأتى بالعجائب فى سبيل وليدها وفلذة كبدها ، مضحية بروحها وبكل ما تملك فى سبيل هذا الوليد .

ونحن كل حين نسمع عن أم ألقت بنفسها فى اليم وراء طفلها الذى جرفه التيار ، ظناً منها أنها ستنقذ حياته . . . ، وتنسى فى غمرات تلك العاطفة الحنون ، أنها لا تجيد من قواعد السباحة شيئاً ، وبعد قليل تلفظ أنفاسها الأخيرة بين الأمواج العاتية ، مستشهدة فى سبيل أنبل عاطفة على وجه الأرض .

وعاطفة الأمومة لا تقتصر على الإنسان وحده ، بل إنها تكون أوضح بكثير فى الحيوان عنها فى الإنسان ، وهى تدل على الإلهام بصورة قاطعة ، وهذا من رحمة الله بالحيوان الأعجم الذى يتعرض دائماً للأخطار التى تحيط بصغاره ، فنحن نرى أن أنثى الكلاب حينما تلد صغارها ، لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها ، حيث تتحول من حيوان وديع إلى حيوان شرس ، ثائرة على كل من تظنه يريد إلحاق الأذى بصغارها .

وكذلك القطط ، والسباع ، والحمام . . .

وحنو هذه الحيوانات على صغارها يفوق حنو الإنسان بكثير. فحينما تتملك الإنسان شهواته ونزواته الخاصة ، يهمل أطفاله وتتملك الجفوة قلبه .

والأمثلة على إلهام الخالق لمخلوقاته أكثر من أن تحصى .

يقول الأستاذ عبد الرزاق نوفل : « من أروع الأمثلة على الإلهام ما نراه فى حيوان الاكسيلوكوب ، الذى يعيش منفرداً فى فصل الربيع ومتى باض مات ، فالأمهات لا ترى صغارها ، ولا تعيش لتساعدها فى غذائها ، لذلك نرى الأم تعمد إلى قطعة من الخشب ، فتحفر فيها حفرة مستطيلة ، ثم تجلب طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية ، وتحشو بها ذلك السرداب ، ثم تبيض بيضة ، ثم تأتى بنشارة خشب وتجعلها عجينة لتكون سقفاً لذلك السرداب ، وتصنع بعد ذلك سرداباً آخر ، فمتى فقست البيضة وخرجت الدودة كفاها الطعام المدخر سنة »[١] .

إن هذا مثلا فذاً يدحض شبهة القائلين بأن الضرورة هى الموجدة للأشياء ، فلو كانت الضرورة تستطيع أن تحنو على مثل هذا المخلوق الضعيف ، وتقدم له كل ما يحتاج إليه من غذاء

---

(١) الله والعلم الحديث ص ٣٠ .

ومأوى ، لما تحملت هذه الأم كل تلك المشقات فى سبيل ضمان الحياة لصغيرها الذى لم ير النور بعد ! وأمثلة إلهام الله للأحياء كثيرة ، لاحظها القدماء والمحدثون ، ويشهد بها كل ذى عقل و بصر .

يقول الجاحظ : « إذا دنا الصياد من عش القبجة ولها فراخ ، مرت بين يديه مرا غير مفيت ، وأطمعته فى نفسها ليتبعها ، فتمر الفراخ فى رجوعها إلى موضع عشها ، والفراخ ليس معها من الهداية ما مع أمها . وعلى أن القبجة سيئة الدلالة والهداية ، وكذلك كل طائر يعجل له الكيس والكسوة ، ويعجل له الكسب فى صغره . . . . فإذا أمعن الصائد خلفها وقد خرجت الفراخ من موضعها ، طارت وقد نحته إلى حيث لا يهتدى الرجوع منه إلى موضع عشها ، فإذا سقطت قريباً دعتها بأصوات لها حتى يجتمعن إليها[١] ... والنعجة ترى الفيل ، والزنديبل ، والجاموس ، والبعير فلا يهزها ذلك ، وترى الضبع وهى لم تره من قبل ذلك ، وعضو من أعضاء تلك البهائم أعظم ، وهى أهول فى العين وأشنع ، ثم ترى الأسد فتتخافه ، وكذلك الببر والنمر ، فإن رأت الذئب وحده اعتراها منه وحده مثل ما اعتراها من تلك الأجناس لو كانت مجموعة فى مكان واحد ، وليس ذلك عن تجربة ، ولا لأن منظره

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ص ١٨٤ ج ٣ .

أشنع وأعظم ، وليس فى ذلك علة إلا ما طبعت عليه من تمييز الحيوان عندها »[١] .

والدكتور موريسون يقول : « إن إحدى العناكب المائية تصنع لنفسها عشاً على شكل منطاد من خيوط بيت العنكبوت ، وتعلقه بشىء ما تحت الماء ، ثم تمسك ببراعة فقاعة هواء فى شعر تحت جسمها وتحملها إلى الماء ثم تطلقها تحت العش ثم تتكرر هذه العملية حتى ينتفخ العش ، وعندئذ تلد صغارها وتربيها آمنة عليها من هبوب الهواء .

فهاهنا نجد طريقة النسج بما يشمله من هندسة وتركيب وملاحة جوية »[٢] .

أما الخيل فقد ضربت أمثلة رائعة على الحنان والحب نحو وليدها ، حيرت العقول ، وخلبت الأنظار ، وكثيراً ما نرى مهر الخيل مربوطاً بجوار أمه وهى تجر عربات النقل ، لأنها بدون أن يكون وليدها بجانبها لا تتحرك خطوة واحدة ، وقد رأيت مرة مشهداً رائعاً لأنثى الخيل ، وقد كان نهر النيل فى بداية فيضانه وتيار الماء جارفاً ، يسير بأقصى سرعة .

فقد نزلت الفرس إلى المياه وسط هذه الأمواج العاتية ، تغالبها

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ص ١٨٧ .

(٢) العلم يدعو للايمان ص ١١٧ جـ٣ .

وتتغلب عليها لتلحق بوليدها الذى أخذ فى مركب إلى جزيرة فى عرض النهر ، وفعلا غالبت كل هذه الأمواج فى دقائق معدودة ولحقت بوليدها تشمه وتتمسح به وهى فى غاية الإنهاك والتعب ، ولكنها فى ذات الوقت فى غاية السرور والفرح ... !

يقول الأستاذ عبد الرزاق نوفل « ومن يشاهد حياة الخيل يعرف أن الفرس إذا ماتت صغير لها نهنهت بصوت مسموع يعرفه القاصى والدانى ، وكثيراً ما يفيض الحزن بالفرس فتأتى من الأعمال مالا يصدقه العقل . . فهذه الفرس التى صاحت وبكت حتى نزلت من عينيها الدموع لموت صغيرها ، وفاض بها الحزن ، حتى أنها توحشت ولم يستطع إنسان أن يقترب من جسد صغيرها وما إن هدأت وحمل الجسد ، حتى سارت خلفه ، ولما دفن لازمت قبره ، وانقطعت عن الأكل والشراب ولم تفد فيها أية محاولة ، حتى أنقذها من عذابها وحزنها الموت ... »[1] . وصدق الله العظيم : « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدى به ... » .

إلهام السمك :

لا يقتصر الإلهام على الإنسان والحيوانات الثديية والطيور فقط ، بل إنه موجود فى الأسماك والحشرات وكل كائن حى ، وربما أنه يتجلى بصورة أروع فى تلك المخلوقات الدقيقة .

---

(١) الله والعلم الحديث ص ١٣٣ .

يقول الأستاذ نوفل : « يعيش ثعبان السمك فى الأنهار ، وعندما يكتمل نموه بأن يبلغ العاشرة من عمره ، يهاجر من البرك والأنهار فى مختلف أنحاء العالم ، فتلك التى تعيش فى أنهار أوربا تسبح حتى المحيط الأطلسى ، وتلك التى تعيش فى النيل وأنهار إفريقيا تسبح إلى البحر المتوسط ثم تخترق مضيق جبل طارق إلى المحيط الأطلسى ، ثم تستأنف جميعاً رحلة تقطع فيها آلاف الأميال ، قاصدة إلى الأعماق السحيقة فى جزر الهند الغربية ، جنوبى برمودا حيث تتزاوج وتضع البيض ، وتنتهى بذلك حياتها حيث تموت ، وبعد مدة تخرج الصغار من البيض ، فتكون مخلوقات صلبة شفافة ، كأنها خيوط صغيرة ، لها عيون بارزة ، وتتهيأ إلى العودة إلى مواطن آبائها ، فى رحلة تستغرق أكثر من ثلاث سنوات فى بعض الجهات لتصل إلى مصاب الأنهار التى عاش فيها آباؤها ، سواء أكانت أنهاراً فى أوربا ، أم ترعاً فى أواسط إفريقيا ، أم بحيرات فى آسيا . ولم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكى فى المياه الأوربية ، أو ثعبان أوربى فى المياه الأمريكية إطلاقاً . . . !! »(١).

ما أعظم تدبير الخالق . . فأى هاد هدى تلك الصغار التى خرجت من البيض بعد موت آبائها ، حيث أنها لم ترها حتى يخبروها بلغتهم الخاصة عن عنوان مسكنهم الأصلى !!

(١) الله والعلم الحديث ص ١٣٤ .

لاشك أنه الدليل الرائع على إلهام الملهم . . . « الذى أعطى كل شىء خَـلقه ثم هدى » .

إلهام الحشرات :

ولنجل الآن جولة قصيرة مع عالم الحشرات ، الذى يكون أغلب أنواع المملكة الحيوانية ، ولندع العلماء الذين درسوا وشاهدوا بعض عجائب الإلهام فى الحشرات ، ورأوا الأدلة واضحة جلية على وجود الملهم سبحانه يحدثونا عن ذلك .

يقول الدكتور كريسى موريسون : « إذا حمل الريح فراشة أنثى من خلال نافذة إلى علية بيتك ، فإنها لاتلبث حتى ترسل إشارة خفية ، وقد يكون الذكر على مسافة بعيدة ولـكنه يتلقى تلك الإشارة ويجاوبها مهما أحدثت أنت من رائحة بعملك لتضليلها ، ترى هل لتلك المخلوقات الضئيلة محطة إذاعة ، وهل لذكر الفراشة جهاز راديو عقلى ، فضلا عن السلك اللاقط للصوت ؟ أتراها تهز الأثير فهو يتلقى الاهتزاز ؟

والجندبة النطيط الأمريكية تحك ساقيها أو جناحيها معاً ، فيسمع صريرها هذا فى الليلة الساكنة على مسافة نصف ميل . إنها

تهز بها ستمائة طن من الهواء وتنادى رفيقها »[١] .

يقول الأستاذ نوفل : « تستطيع طوائف من العناكب والزنابير أن تحفظ اللحم أسابيع فلا يفسد ، دون الاستعانة بما تفتقت به حيل الإنسان من تبريد أو ثلج ، فهى لما كانت تحتاج إلى اللحم طرياً فى طعامها ، ولا نضمن الظفر به كل يوم ، لذلك تحفظ صيدها من الحشرات التى تزيد على حاجتها ، بطريقة لم يستطع الإنسان أن يصل إليها ، فهى تفرز فى أبدانها مادة تخدرها دون أن تميتها ، فيبقى غذاؤها دائماً طرياً طازجاً ، بل حياً لحين استهلاكه ، ولم يتمكن العلم حتى الآن من تخدير ذبيحة الإنسان ، والإبقاء عليها بحياة كامنة دون موت لحين استهلاكها .. »[٢]

النمل يضرب أروع الأمثلة :

من أعجب ممالك الحشرات مملكة النمل ، التى تكاد تكون أروع مملكة تتجلى فيها عناية الخالق ، وعجيب صنعه ، وروعة إلهامه . فالنمل يعيش عيشة جماعية ، متعاونة إلى أبعد حدود التعاون ، ضاربة المثل الأعلى فى إنكار الذات

---

(١) العلم يدعو للإيمان ص ١١٩ .

(١) الله والعلم الحديث ص ١٣٩ .

وكثيراً مانشاهد جماعة من النمل تحمل حشرة من الحشرات تبلغ أضعاف وزنها عشرات المرات فيأخذنا العجب من ذلك ، ولكن بفضل تعاونهم إستطاعوا أن يحملوا تلك الكتلة إلى مملكتهم لتكون غذاء لهم جميعاً !

كما أننا كثيراً مانشاهد أكواماً من الرمال الدقيقة بجانب جحر النمل تحتوى على ملايين الوحدات من هذه الرمال الدقيقة ، ولشد مانعجب حينما نعلم أن هذه الملايين قد نقلت من داخل الجحر إلى خارجه حبة ، حبة ، كل حبة تحملها نملة فى فمها تسير بجد ونشاط نازلة صاعدة !

والنمل يتكلم بلغة خاصة فيما بينه ، ونحن نلاحظ ذلك جلياً حينما نراقب نملة قد وجدت طعاما لا تقدر على حمله ، فتذهب على التو مسرعة إلى جحرها ، وبعد برهة قصيرة نجدها قد عادت ومعها عدد كاف من النمل لحمل هذا الطعام ، إنها لاتخطىء موضع الطعام مع بعد المسافة !

والقرآن الكريم يحدثنا عن لغة النمل ويقص علينا أن بعض الناس يفهم هذه اللغة ، وقد كان سيدنا سليمان عليه السلام بما آتاه الله من ملك لا ينبغى لأحد من بعده يعرف هذه اللغة .

يقول تبارك وتعالى : « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » النمل : ١٧ — ١٩

والنمل راع بارع ، وفلاح ماهر .

يقول الدكتور كريسى موريسون « وهناك أنواع من النمل تدفعها الغريزة أو التفكير « واختر منهما مايحلو لك » إلى زرع أعشاش للطعام فيما يمكن أن نسميه بحدائق الأعشاش ، وتصيد أنواعاً معينة من الدود واليرق أو الأرق .

فهذه المخلوقات هى بقر النمل وعنزاتها ، ومنها يأخذ النمل إفرازات معينة تشبه العسل ليكون طعاماً لها »[1] .

يقول الأستاذ نوفل : « ويزرع النمل زراعات خاصة به ، ويقول العالم رويال ديكنسون « إن النمل قد زرع مساحة قد بلغت خمسة عشر متراً مربعاً من الأرض ، وأنه وجد جماعة من النمل

---

(١) العلم يدعو للايمان ص ١٢٩ .

تقوم بحرثها على أحسن مايقضى به علم الزراعة ، فبعضها زرع الأرز ، وجماعة أزالت الأعشاب ، وغيرها قامت لحراسة الزراعة من الديدان .

ولما بلغت عيدان الأرز تمام نضجها ، كان يرى صفاً من شغالة النمل لا ينقطع يتجه إلى العيدان فيتسلقها إلى حب الأرز ، فتنزع كل شغالة من النمل حبة وتنزل بها سريعة إلى مخزن تحت الأرض، وقد طلى العالم أفراد النمل بالألوان ، فوجد أن الفريق الواحد من النمل يذهب دائماً إلى العود الواحد حتى يفرغ ما عليه من الأرز، ولما فرغ من الحصاد هطل المطر أياماً وما إن انقطع حتى أسرع إلى مزرعة النمل ليتعرف أحواله ، فوجد البيوت تحت الأرض مزدحمة بالعمل والعمال ، ووجد النملة تخرج من بيتها ، تحمل حبة الأرز فتذهب بها إلى العراء فى جانب مائل من الأرض ، معرض للشمس وتضع حبتها لتجف من ماء المطر ، وما إن ولى الظهر حتى جف الأرز، وعاد الشغالة به إلى مخازن تحت الأرض ! !

فمن ألهم كل هذه الكائنات تلك المعجزات التى تقوم بها؟»[1]

ويقول الدكتور : «وريسون : «والنمل يأسر طوائف منـــه

---

(١) الله والعلم الحديث ١٤١ ، ١٤٢ .

ويسترقها . . . فكيف يتاح لذرات المادة التى تتكو
تقوم بهذه العمليات المعقدة ؟ لا شك أن هناك خالقاً أرشدها إلى
كل ذلك » .

وصدق الله العظيم : (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم . . .)

إلهام النحل :

من الحشرات التى تعيش عيشة جماعية « نحل العسل » .

وخلية النحل تدل دلالة لا ريب فيها على وجود الخالق وهى مبنية بطريقة هندسية تفوق أى بناء يقوم به العقل البشرى على أحدث الأسس العلمية ، فهى قد بنيت على شكل مسدس منتظم الأضلاع ، وذلك الإقتصاد فى مساحة الحيز الذى تشغله الخلية ، كما أن روعة الإلهام تتجلى فى تلك المادة الشمعية التى بنيت بها الخلية ، والتى تعمل كطبقة عازلة تحفظ محتويات الخلية من التلف.

كما أن تقسيم العمل الوظيفى فى مملكة النحل يعد مثلا فذاً للإلهام . فهناك الملكة التى تضع البيض فقط وتتربع على عرش المملكة بمفردها ، وهناك طائفة اليعاسيب التى تكون مستعدة لتلقيح الملكة ثم تنتهى مهمتها وتقضى عليها الشغالة ، وهناك طائفة

الشغالة ، التى تنقسم بدورها إلى طوائف :

فطائفة تجلب الرحيق من الأزهار ، وأخرى تنظف الخلية مما يعلق بها ، وثالثة تعمل على تهيئة الجو فى درجة حرارة معينة ، فيقوم البعض بحك أجنحته بجسمه ، حتى تتولد الحرارة التى تعمل على تدفئة الخلية ، بينما يقوم البعض الآخر بتحريك أجنحته إلى أعلى وإلى أسفل فى حركة سريعة ، حتى يعمل على تهوية الخلية ، كما تقوم الطائفة الرابعة بتقديم الغذاء للملكة ، كما توجد الأميرات اللاتى يعتبرن كاحتياطى لتولى إحداهن العرش عند فقد الملكة !!

وذلك النوع من النحل الذى ينتج من بيض غير ملقح ، إنه لشىء عجيب فى عرف قوانين التكاثر والإخصاب .

ثم أخيراً ، ذلك الشهد الذى ينتجه النحل ، والذى أثبت العلم الحديث والتجارب المتكررة أنه يعمل على شفاء عدد لا يحصى من الأمراض المستعصية مثل : تصلب الشرايين ، والروماتيزم ، وضعف القلب ، وضغط الدم و . . . بل ومرض السكر أيضا إنه يفوق أعظم دواء ركبه الإنسان .

وصدق الله العظيم : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يَعرُشون . ثم كلى من كل الثمرات

فاسلكى سبل ربك ذُللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) .

سورة النحل : ٦٨ ، ٦٩

الانسان آية الابداع

على قمة المخلوقات يتربع الإنسان ، وهو الآية العظمى على إبداع الخالق .

فهو المخلوق الصغير الحجم ، الضعيف الجسم القوى التفكير ، ذو العقل السامى والبديهة الحاضرة ، الذى استطاع أن يسخر كل شيء فى هذا الوجود بما نفخه الله فيه من روحه ، وبما حباه به من نعمة التفكير وصفاء الروح .

وقد استطاع الإنسان على كر الدهور ومر الأيام أن يسخر الطبيعة لخدمته ، وأن يقيم الحضارات المزدهرة .. ، لأن الله خلق كل شيء من أجله « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » .

وقد اخترع الإنسان العجلة والعربة ، والقاطرة ، والطائرة ، والصاروخ ، وسفن الفضاء ، والراديو ، والتليفون ، والتليفزيون و . . . وسيستمر فى اختراع أشياء تتضاءل بجانبها تلك التى سبقت .

كما أنه اخترع النبل ، والحربة ، والسيف ، والبندقية ،والمدفع والدبابة ، والقنبلة الذرية والهيدروجينية ، و . .

وصدق الله العظيم : (علم الإنسان ما لم يعلم) .

(قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . .)

ما أعظم هذا الإنسان حينما يكون إنساناً ، إنه يفضل الملائكة ويتغلب على الجن والشياطين . .

يقول الدكتور : موريسون : « إن الانسان وحده هو الذى أوتى عقلا بلغ من التطور أنه يستطيع أن يفكر به تفكيراً عالياً . والغريزة ليست إلا كنغمة واحدة من الناى ، نغمة جميلة ولكنها محدودة ، بينما العقل البشرى يحتوى على كل الأنغام التى لكل الآلات الموسيقية فى أوركسترا ، والإنسان يمكنه أن يوفق بين تلك الأنغام جميعها ، وأن يقدم للعالم قطعاً موسيقية متحدة النغم (سيمفونيات) تدنو من الإعجاز ، وإلى أن خلق الإنسان لم تخرج العناية الإلهية كائناً حياً من بين الصخور الفطرية ، وله عقل مرن كعقل الإنسان ، والآن يمكننا أن نتصور تلق

الإنسان قبساً من نور الله يجعله سيداً على الأرض ، عجيباً فى مقدرته ، باقياً فى مصيره ! »[١] .

يقول الدكتور : روبرت هورتون كاميرون : « أنا أعتقد أيضاً بوجود الله بسبب مازودنى به من الانفعالات ، ولكن هل أضعفت حجتى بهذا القول ؟

هل اعترفت بأن إيمانى لا يقوم على المنطق وأنى أومن لأننى أخشى ألا أكون مؤمنا ؟ كلا فطبيعتنا الانفعالية دليل على حكمة الله وتدبيره ، وإلا فكيف تكون حياة الإنسان بغير هذه الإنفعالات ، ولم يمكن أن يعمر الإنسان على سطح الأرض بغير الدافع الجنسى وما يتصل به من الانفعالات : ولماذا تنخفض نسبة وفيات الأطفال عند ما يزداد حب آبائهم لهم ...... إننى أعتقد بوجود الله لأنه وهبنى التمييز الأخلاقى ، فالجنس البشرى لديه إحساس فطرى بما هو خطأ وما هو صواب ... ويختلف الإنسان فى جميع الصفات والمزايا عن سائر الكائنات الأرضية الأخرى فهو خليفة الخالق على الأرض »[٢] .

وصدق الله العظيم : « ألم نجعل له عينين . ولساناً وشفتين . وهديناه النجدين » .

---

(١) العلم يدعو للايمان ص ١٣٠ .

(٢) الله يتجلى فى عصر العلم ص ١٣٩ .

(وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ...) .

يقول العلامة الدكتور : سير إرثرا دنجتون : « إن تفسير الكون بالحركة الآلية أمر لا يسيغه العلم ، وأن الكون أحرى بأن يفسر بالنسب الرياضية فى عقل عاقل ، ولكن الإنسان هو سر الكون الأكبر ، وهو الذى يدرك هذه النسب ويدرك ما بين عقله وعقل الكون من علاقة دقيقة ، وأنه إذا جاز للحركة الآلية أن تخلق فى المستقبل — إنساناً آلياً — فليس مما يجوز فى العقول أن نتخيل ذلك الإنسان سائلا عن الحقيقة أو مبالياً بأسباب الحق والباطل ، ولكن هذا الشوق إلى الحق هو هو لب لباب الحياة ، وهو هو محور الوجود الإنسانى منذ نجم من صلب هذه الطبيعة ، هذا هو الذى يجعل الإنسان مغايراً كل المغايرة لما حوله من الظواهر الطبيعية ، ويجعله قوة روحانية ... ومتى ارتفعت الصيحة من قلب الإنسان فيم كل هذا ؟ لم يكن جواباً صالحاً لتلك الصيحة أن ننظر إلى هذه التجارب التى نتلقاها من حسنا ونقول : كل هذا ذرات وفوضى ، وهو كرات نارية تحوم وتحوم إلى القضاء المحتوم . . . كلا . بل الأحرى أن نفهم أن كل هذا وراءه روح يستوى الحق فى محرابها ، وتكمن فيها قوابل لتنمية الذات بمقدار ما فيها من النزوع إلى تلبية عناصر الخير والجمال ... »[1] .

(١) الله ، كتاب الهلال ص ٢٤٥ .

ويقول الدكتور : موريسون : « وإذا كانت حقيقة الغاية مقبولة بالنسبة لكل الأشياء ، وإذا آمنا بأن الإنسان هو أعظم مظهر لتلك الغاية ، فإن الاعتقاد العلمي بأن جسم الإنسان وجهاز مخه ماديان ، قد يكون سليما . فإن الذرات والهباءات في المخلوقات الحية تفعل فعالا مدهشة ، وتبني أجهزة عجيبة ، ولكن هذه الأدوات عديمة النفع ما لم يحركها العقل حركات ذات غرض . فهناك إذن خالق للكون لا يرقى إليه تفسير العلم ، ولا يقدر أن ينسبه للمادة »[1] .

سبحانك ربي . ما أعظم رحمتك ، وما أكثر نعمك علينا : خلقتنا ورزقتنا ، وفضلتنا على كثير ممن خلقت تفضيلا . . . ولكننا لم نقدرك حق قدرك. فاهدنا ربنا سواء السبيل ، وأخرجنا من ظلمات الضلالة إلى نور الهدى (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا وأخطأنا ... واعف عنا واغفر لنا وارحمنا . .) .

الروح الصافية ووجود الله :

إذا ما تحرر الإنسان من نفسه المادية ، وسبح بروحه الشفافة في رحاب العالم الفسيح ، فلا شك أنه يرى ما لا يراه وهو مقيد

---

(١) العلم يدعو للإيمان ص ١٣٤ .

بذلك الجسد الفانى الذى ينظر دائماً إلى أسفل ، ويتشبث بعالم التراب .

إذا ما تحرر الإنسان من نفسه المظلمة ، فسيرى عظمة الخالق ممثلة فى جمال مخلوقاته ، وبدائع صنعه ، من أصغر ذرة إلى أعظم جرم ، ومن أدق زهرة إلى أضخم شجرة ، ومن أضيق جدول رقراق إلى المحيط الهادر . . .

وهو قد يصل فى سبحات روحه إلى مالاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

نعم . قد يصل الإنسان إلى كل هذا ثم يدرك الحقيقة العظمى . . . يدرك وجود الله .

يقول الدكتور : موريسون « إن الروح الخالدة التى لا يعوقها الزمن قد ترى أحبابها وتضمهم إلى صدرها ، ولما كان تصورها الذى كمل قد أصبح حقيقة روحانية ، فإنها تقدر أن ترى الحقيقة الكبرى ، أعنى الخالق عز وجل ، والجنة هى حيث يشاء أن تكون . . . . وإذ ترتفع روح الإنسان الخالدة صوب الله ، كاسبة فى طريقها سعة من الفهم ، إذ ترقى نحو الملكوت الأسمى ، فإن جمال خلق الله فى العالم المادى يتباعد عن النظر ، كما تضمحل

صور الطفولة من ذهن الإنسان حين ينضج ، وهكذا قد تهبط الكرة الأرضية حقاً إلى درجة التفاهة ، مع تأمل الكون ، وإذن فى روعة الإدراك الروحانى قد تصبح المادة مثل الظل الذى يبهت أمام الشمس المشرقة وتصبح كلا شىء .

وهكذا يستطيع الإنسان بكفايته الروحانية أن يتصور القدرة الإلهية ، ومع تطور روحانيته سيكون أقرب إلى إدراك جلال الخالق وقدرته وعظمته ! »[١] .

هذه كلمات عالم قضى عمره بين التجارب المادية ، ولكن الروح الصافية لا يحجبها حاجب عن الاتصال ببارئها ، فهى دائماً تتوق إلى الذات الأسمى ، مقهورة بفطرتها ، منجذبة بطبيعتها ، آوية إلى خالقها . . .

اللهم هب لنا روحاً صافية ، وقلباً نقياً ، ونفساً مطمئنة . . .

يقول الدكتور : كلود . م . هاثاواى : « لقد وجدت أن الإيمان بالله هو الملاذ الوحيد الذى تطمئن إليه الروح ، وكما يقول « أوجستين » : لقد خلقنا الله لنفسه ، وإن أرواحنا لتبقى قلقة

---

(١) العلم يدعو للإيمان ص ١٨٠ ، ١٨١ .

حائرة حتى تجد راحتها فى رحابه »[١] .

يقول الدكتور روبرت هورتون كاميرون : « يتفق ما وصلت إليه العلوم حول وجود الله مع ما جاء فى الكتب السماوية من أن الإنسان يحصل على العلم بطريقتين : البصر ، والبصيرة ، أما البصر فهو ما نتعلمه فى حياتنا وما نكتسبه عن طريق حواسنا من الخبرة بأمور الحياة ، وأما البصيرة فهى ذلك النور الذى يفرغه الله فى قلوبنا فيكشف لنا به ما لا نعلم . وكذلك الحال فيما يتصل بالإيمان بوجود الله ، إذ لا بد أن يقوم أولا على البصر وملاحظة ظواهر كتلك التى أشرنا إليها سابقاً ، ثم نلتجىء بعد ذلك إلى الله لكى يكمل إيماننا ويدعمه... لقد لمست هذا الدليل فى نفسى منذ اثنتين وثلاثين سنة عندما كنت بحجرتى فى القسم الداخلى بجامعة « كورنل » يوم جاءنى البرهان وأغدق الله على قلبى نور الإيمان . لقد أصبح الله لدى أكبر من كل ما سواه حتى إننى أرضى أن أفقد كل شىء فى هذا الوجود ، ولا أرتد إلى حالتى السابقة »[٢] .

هذه تجربة شخصية من عالم « معملى » تدل على صفاء

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٩٠

(٢) المرجع السابق ص ١٣٠

الروح والإيمان الصادق ، الذى منّ الله به عليه ، بعد أن كان ملحداً على ما يبدو من كلامه .

فسبحان مقلب القلوب . . .

وصدق الله العظيم : « من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . . . » .

« هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ... » .

الفصل السابع

مع القرآن

مع القرآن

كان من حق هذا الفصل أن يقدم على غيره من فصول هذا الكتاب ، لأن أحق الكلام بالتصدير هو كلام الله . . لكن لما كنت قد بدأت صفحات الكتاب بآيات من كتاب الله ، أحببت أن يكون الختام مسكاً بآيات من كتاب الله كذلك .. لأن خير مانتمنى أن نختتم به كلامنا هو تلاوة آيات من الذكر الحكيم .

والواقع أن صفحات الكتاب من أولها إلى آخرها تتوسطها آيات من كتاب الله ، تشع نوراً على أسطرها . .

كما أنني لا أقصد من هذا الفصل سرد آيات التوحيد فى القرآن الكريم ، أو الآيات التى تناقش المشركين مناقشة منطقية ، فهذا مما لا يتسع له مثل هذا البحث المختصر .

ولكن قصدى من هذا الفصل هو عرض نماذج من آيات القرآن الكريم أثبت بها أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من تأليف بشر بحال من الأحوال ، وإذا لم يكن كذلك ، فهو إذن صادر من كائن لا ترقى إليه عقول البشر ، وهو الله سبحانه وتعالى .

وبذلك نثبت وجود الله بهذا المنطق عن طريق القرآن نفسه، الذى يعتبر أكبر دليل علمى لا يمكن أن يتطرق إليه الشك فى عقول المنصفين.

ومما لا شك فيه ولا اختلاف، أنه لم تخل مؤلفات أى عبقرى وجد على ظهر البسيطة، منذ وجدت الدنيا إلى يوم الناس هذا من مواطن النقص والزلل، سواء فى أسلوبها، أو فيما حوته من معلومات . . .

كذلك لم نسمع عن بشر قط، برع فى جميع العلوم، وكانت معلوماته فيها متساوية، وإلى درجة التخصص القصوى.

كما أننا لم نسمع عن بشر استطاع أن يشرع قوانين تصلح جميع موادها، حتى ولو لقرن من الزمان، إذ أن كل إنسان إنما يفكر بحسب مقتضيات عصره وبحسب مفاهيم وعرف ذلك العصر، ولا يستطيع أن يتجاوز بفكره القاصر حاضره، وينظر إلى المستقبل البعيد، فيضع له الأسس والقوانين والتشريعات التى تحكم سلوك الناس عشرات القرون، بل إلى ما شاء الله . . .

كما أننا نرى أن جميع الكتب التى تروى تاريخ السابقين،

لم تخل جميعها من الخرافات والأساطير والمجاملات ، إن لم يكن أغلبها خرافات وأساطير ..

أما القرآن فهو على النقيض من ذلك تماماً :

فأولا : لم يتجرأ أحد له عقل سليم منصف ، أن ينقد آية واحدة من آيات القرآن الكريم انقص فيها ، أو خلل فى أسلوبها أو عدم صدق فيما ترويه .

ثانياً : أشار القرآن إلى جميع العلوم التى يعرفها البشر والتى لم يعرفوها بعد ، وذلك بالإشارة إلى أسسها إجمالا ، أما التفصيل والتفسير فقد تركه لعقل الإنسان .

ثالثاً : جاء القرآن بتشريعات تصلح – باعتراف العقلاء فى كل زمان ومكان – لجميع البشر على كر السنين ، وتتابع الزمن ؛ وأن هذه التشريعات هى وحدها التى تستطيع أن تخلق مجتمعاً عالمياً لا حروب فيه ولا بغض ، ولا ظلم ، ولا انحلال .

رابعاً : قص القرآن قصص السابقين على منهج صادق وحقائق ثابتة ، أيدت صحتها الدراسات العلمية الحديثة من حفريات وغيرها

والقرآن حين يقص القصة فإن القارىء يحس أنه يعيش فصول هذه القصة فصلا فصلا ، مجسمة أحداثها أمام ناظريه .

القرآن والعلوم

أشار القرآن الكريم إلى كثير من الحقائق العلمية التى ثبت بعضها بعد تقدم العلم والاكتشافات ، والتى لم يظهر الكثير منها حتى الآن ولا تزال فى طى الغيب .

والقرآن حينما يتحدث عن العلوم ، فليس معنى ذلك أنه يضع التفاصيل التى تنبنى عليها هذه العلوم ، أو الطرق التى يجب أن نتبعها فى دراستنا لها ، بل إن معرفة هذه التفاصيل ، واستنباط تلك الطرق قد تركت لعقول البشر ، التى وهبها الله قوة من التفكير تستطيع بها أن تبتكر وتستنبط النظريات .

وسوف نكتفى فى هذا الفصل باستعراض بعض الآيات التى أشارت إلى بعض الحقائق العلمية ، على قدر فهمنا لها ، والله أولا وأخيراً هو الذى يعلم مراده منها .

وحدة الخلود :

يقول تبارك وتعالى : « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهى يومئذ واهية »

الحاقة ١٣ — ١٦

هذه الآية تقرر أنه إذا أتى أمر الله بنهاية هذه الحياة الدنيا ، فإن الكون سيضطرب ، وتدك الأرض وما عليها من جبال ،وفى نفس الوقت يسرى هذا الاضطراب فى جميع أجزاء هذا الكون.

وهذه الحالة للكون يقرر العلماء ، على أسس من النظريات والحقائق العلمية ، أنها ستحدث حتما فى يوم من الأيام . حيث أن هناك جاذبية عامة بين جميع أجزاء هذا الكون تحفظ له وحدته ونظامه ، وإذا ما فقدت هذه الجاذبية فإن أجزاء الكون بالتالى سوف تفقد وحدتها وتماسكها وارتباطها مع بعضها البعض . وهكذا يخبرنا القرآن عن ذلك بأسلوب معجز :

« وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . . . وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » .

فهل كان محمد صلى الله عليه وسلم — وهو الأمى — محيطاً بجميع النظريات الفلكية والطبيعية والكيميائية التى قررت هذه الحقيقة بعد جهاد مضن للإنسانية على كر الدهور ؟ ؟

ميلان محور الأرض :

يقول تعالى : « وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ، ذلك من آيات الله . . . » .

الكهف : ٧

حينما قرأت هذه الآية الكريمة خطر لى خاطر ، فقلت فى نفسى : ألا تدل هذه الآية على ميلان محور الأرض وتؤيد النظرية القائلة بذلك .

ثم راقبت الشمس فى شروقها وغروبها فلاحظت ما يلى :

أولا : من وقت الشروق إلى وقت الزوال فى الظهيرة لاحظت أن الشمس تميل ناحية اليمين بالنسبة للشخص الناظر ناحية الشرق ، فإذا ما انتصف النهار صارت الشمس عمودية فوق رؤوسنا .

ثانياً : من بعد الزوال إلى الغروب لاحظت أن الشمس تتجه ناحية شمال الشخص الناظر إلى الشرق أيضاً .

وحينما رجعت إلى معنى الآية اللغوى ، ووجدت أن معنى تزاور . يعنى تبتعد ومعنى تقرضهم . يعنى تقطعهم ، تأكدت مما ذهب إليه خاطرى ، لأن محور الأرض لو لم يكن مائلا لكانت

الشمس تسير فى حركتها الظاهرية على خط متعامد مع خـــط الاستواء الذى يقسم الكرة الأرضية . وفى هذه الحالة كان يصبح للشىء ظل واحد فقط ، من جهة واحدة ، ولكننا نرى الحائط مثلا فى الضحى له ظلان . ظل أمامه وظل عن الجانب الأيسر بالنسبة للشخص الناظر إلى الحائط من ناحية الغرب .

أما فى فترة العصر فإننا نرى العكس من ذلك ، حيث نرى للحائط ظلا خلفه وظلا ناحية الجانب الأيمن بالنسبة لنفس الشخص السابق.

وهذا دليل قاطع على ميلان محور الأرض . وقد قمت بتجربة بسيطة على جسم كروى ثبتُّ عليه بعض المسامير وأدرته أمام مصباح كهربائى بحركة مائلة المحور فوجدت ما يؤيد ما ذهب إليه خاطرى .

وأنا حينما قرأت بعض كتب التفسير — وهو عدد قليل بالنسبة لكتب التفسير الأخرى التى لم أطلع عليها — لم أجد فيها مايشير إلى هذه الحقيقة . لذلك أرى أنه من الصدق مع نفسى ومع أمانة العلم أن أقول : إن هذا الرأى الذى أثبته ، ليس منسوباً إلى أحد، حتى أتحمل عباه وحدى . والله أسأل أن يقينا شر الزلل .

فهل كان فى وسع رجل أمى أن يقرر هذه الحقيقة التى لم تعرف إلا قريباً ! كلا . إنه تنزيل الحكيم الخبير .

حقيقة الروح :

يقول تبارك وتعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . الاسراء : ٦٥

هذه الآية تقرر أن الروح لا يعرف كنهها أحد ، وأن معلوماتنا عاجزة كل العجز عن أن تدرك حقيقة الروح . والعلم الحديث يقرر ذلك بكل تأكيد ويعترف بأن الحياة والروح لا يمكن لأحد أن يعرف كنههما .

فهل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من علماء علم الحياة ، قام بتجارب أثبتت له أن الروح لا تعرف حقيقتها ؟ ؟

ولو كان هذا القرآن من عنده ، لانتهز هذه الفرصة المواتية ليظهر علمه وتفلسفه نحو شيء لم يعرف أحد حقيقته من قبل ، ويعتبر نفسه المكتشف الوحيد لهذا السر العجيب ، ويقول لهم: إن الروح هي كذا وكذا ، ولو عن طريق السفسطة . ولكنه لم يفعل . . . لأنه لا يعرف . . . ولأنه لا ينطق عن الهوى .

نقص الأوكسجين :

يقول تعالى : « ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعّد فى السماء » . الأنعام : ١٢٥

تفيد هذه الآية أن الإنسان إذا ارتفع إلى مسافات شاهقة ، فإنه يشعر بضيق فى التنفس بسبب نقص الأوكسجين فى طبقات الجو العليا ، كما قرر ذلك العلم الحديث .

فهل كانت لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأجهزة التى استطاع أن يعرف بها كمية الأوكسيجين فى كل طبقة من طبقات الجو ، وأن هذا الأوكسيجين ضرورى لعملية التنفس ؟

إن البشرية فى عهد محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن تعرف إلا أربع عناصر فى هذا الكون ، هى : الماء ، والتراب ، والهواء ، والنار ! !

عجائب السماء :

يقول تعالى : « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون » .

هذه الآية تبين ما يقع من البشر لو فرض أنهم عرجوا إلى السماوات العلى ، لأنهم فى هذه الحالة سوف يرون من العجائب والألوان التى لم يعهدوا لها مثيلا ، ما يخلب أنظارهم ويحير عقولهم ، فلا

يصدقون أنهم في حالة وعي ، بل إنهم سكارى الأبصار ، مسحورو الألباب ، فهذا الذي يرونه لا يمكن إلا أن يكون من فعل السحر الذي وقعوا في حبائله .

فهل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم — على فرض أنه بشر عادي — قد رأى كل هذه العجائب حتى يستطيع أن يصف هذه الحالة ؟ كلا . إنه الله الذي يعلم ما في السموات والأرض . . .

في مجال التشريع

إن التشريع القرآني هو التشريع الوحيد الذي يستطيع أن يبني عالماً خيراً ، وقد أيقنت بهذه النتيجة كل اليقين منذ أن بدأت أفهم معاني آيات كتاب الله من خلال تلاوتي للقرآن . فقد بهرتني هذه التشريعات التي تقوم على أسس نفسية وفقاً لمقتضيات النفس الإنسانية ، وكم تعجبت لهذا العالم الغافل عن طريق سعادته ،وسبيل حل مشاكله التي تكاد تحطمه وتقطع أوصاله . .

كم تمنيت لو أن الإنسانية رجعت إلى رشدها ، وعرفت الطريق إلى هدى بارئها .

إن التشريع القرآني شمل جميع مناحي الحياة ، من سياسة واقتصاد وأخلاق واجتماع . . ومهما حاول البشر أن يصدروا

من تشريعات ، أو يقننوا من قوانين ، فإنهم سوف يظلون تائهين ، لا يجدون لمشاكلهم حلولا ، ولا لسعادتهم طريقاً ، مالم يطلبوا الحل من خالق البشر ، العليم بسرائر النفوس . .

وإنى لأعجب أشد العجب من إنسان يدعى أنه يؤمن بالله ثم يعترض على تشريع من تشريعات القرآن ، ويصفها بأنها غير إنسانية أو أنها فيها نوع من الوحشية ! وأنت حينما تسأله : أليس هذا القرآن هو كلام الله ؟ فسيجيبك . بنعم . سبحان الله ! ! هل هذا الشخص يعنى ما يقول ؟ كيف نقول إننا نؤمن بالله، ثم نعترض على حكم من أحكامه ؟

إن هذا السلوك يعتبر أشد من الشرك فى نظرى .

ولكى تتضح أمامنا الرؤيا فسنحاول عرض بعض التشريعات القرآنية ثم نقارنها بتشريع البشر ، لنرى البون الشاسع بين تشريع البشر وتشريع خالق البشر . . .

جزاء القتل :

قال تعالى : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين . . . » .

تبين هذه الآية عقوبة القاتل المتعمد وهى القصاص منه ، أى قتله فى مقابل القتيل الذى قتله ، غير مراع لأوامر الله حرمة ، ولا للإنسانية عاطفة ، ولا للأخوة حقاً .

ومثل هذا الشخص يعتبر مجرماً وخطراً عضواً فاسداً ، إذا ترك فسيشل حركة المجتمع ، أما إذا قتل هذا الشخص من فوره فإنه سيكون عبرة للآخرين ورادعاً لمن يعتدون على أرواح الآمنين .

فأى شخص إذا أيقن أن مصيره هو الموت حينما يقدم على مثل هذه الفعلة الشنيعة ، لا شك أنه سوف لا يفعل . .

وهذه العقوبة تعتبر إيجابية ، وهى إذا طبقت فى أى بقعة من بقاع الأرض فتصبح جريمة القتل العمد فى حكم النادر .

وقد تبين بعد الدراسات الطويلة لعلماء البحوث الجنائية ، أن أهل القتيل لا تهدأ ثائرتهم أبداً بدخول القاتل السجن ، حتى ولو أخذ كل المدة التى حكم بها عليه ، ولكنهم يحاولون أن يثأروا من أى شخص من أقرباء القاتل وبذلك تروح كثير من النفوس البريئة ضحية لمثل هذا التصرف السيء .

وكم سمعنا أن قاتلا ذهب إلى أهل القتيل بعد أن قضى ربع قرن فى السجن ليأخذوا منه بالثأر ، على أمل أنهم لن يفعلوا ذلك ،

حيث أنه قد أخذ جزاءه بكل هذه السنوات الطوال ، كما أن هذه المدة الطويلة كفيلة بأن تنسيهم ذلك الحادث المؤلم ، ولكن ماذا كانت النتيجة فى كل مرة ؟

كانت النتيجة فى أغلب الأحيان هى إفراغ الرصاص فى صدر هذا الشخص من بندقية ابن القتيل ، الذى أشرب ابن الثأر من صدر أمه المتأجج بنار الإنتقام .

ثم ماذا ؟ يتسلسل الأمر قتيلا بعد قتيل فى عرض مستمر ، ينسى فيه الكل وشائج الأخوة ، ومعانى الرحمة ، وروح التسامح والعفو . .

إذن فعقوبة السجن لمثل هذه الجريمة لا تؤدى إلى صلاح المجتمع ، بل هدمه .

لأن القاتل إذا لم يقتل مباشرة ، فإن نار الثأر تتأجج فى قلوب أهل القتيل وتكون النتيجة هى سقوط العشرات من الأرواح البريئة .

كما أن الإجراءات القانونية المعقدة ، التى تأخذ شهوراً وربما سنوات ، تفسح المجال لعملية الأخذ بالثأر وانتشار الفوضى فى المجتمع .

والعلاج الحاسم الوحيد هو تنفيذ حكم الإعدام فوراً ، ففقد شخص أهون كثيراً من فقد العشرات ، بل المئات .

ويكفى ضرراً ما بعده ضرر ، فقد روح الأخوة من قلوب الإخوة . . .

وصدق الله العظيم : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » .

حد السرقة :

قال تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله ، والله عزيز حكيم » .

هذه الآية الكريمة تحدد العقاب لمن يتعدى على الآمنين ، فيؤرق مضاجعهم ، ويفجعهم فى أموالهم ، ولا يلقى لأوامر الله بالا ، ولا للأخلاق حرمة .

حدد القرآن عقوبة أمثال هؤلاء بقطع أيديهم ، وهى تقطع فى الحال ، أمام مشهد من النـــاس . ثم يمشى السارق بين أفراد المجتمع ، وعلامة الإثم ظاهرة للعيان .

ما أخزاه موقفاً ذلك الذى يشعر به هذا المعتدى على حرمات الأخلاق وحقوق الناس .

ولنرى الآن مدى الإيجابية فى هذا العقاب :

أولا : يعرف هذا المعتدى بين الناس ، فيكونوا دائماً فى حذر منه .

ثانياً : يكون منظر هذا السارق المقطوع اليد عبرة لكل من تحدثه نفسه بالاعتداء على حقوق الغير ، لأن أى إنسان لا يريد أن يتصور نفسه وهو يمشى بين الناس أقطع اليد ، موصوماً بذلك الإثم المخزى .

والنتيجة الحتمية لكل هذا هى انعدام هذه الجريمة من المجتمع تقريباً .

ولا بأس — والعقل المتزن يقر ذلك — من التضحية بالبعض فى سبيل مصلحة الكل . إن الطبيب يقرر قطع عضو من البدن قد أصابه العطب لأن وجوده بهذه الحالة يهدد البدن جميعه بالتلف ففقد عضو من البدن أخف بكثير من فقد البدن كله .

والسفينة إذا كانت مهددة بالغرق بسبب زيادة حمولتها من الناس ، فإن العرف والعقل يؤيدان إلقاء بعض راكبيها فى عرض البحر لنجاة بقية الركاب ، حيث أن مصلحة المجموع اقتضت ذلك .

ونحن إذا قارنا بين العقوبة التى حددها القرآن ، والعقوبة التى حددها القانون الوضعى ، لوجدنا البون شاسعاً والفرق كبيراً . .

وعيوب عقوبة القانون الوضعى وهى السجن تتضح فيما يأتى:

أولا : بدخول السارق السجن سوف تترمل زوجته ، ويتشرد أولاده ، وربما أدى ذلك بالأسرة إلى الإنحراف وسلوك طريق الجريمة .

ثانياً : بعملية حسابية بسيطة ، إذا أحصينا النفقات التى تنفق على رواد السجون فى العالم ، لوجدناها تبلغ مئات الملايين من الجنيهات ، وكان يمكن أن تنفق هذه الملايين لرفاهية دول بأسرها ، تعانى من الفقر وانخفاض مستوى دخل الفرد .

ثالثاً : أن السجين فى غالبية الأحيان يخرج من السجن وقد تأصلت فى نفسه روح الجريمة ، فيكون خطراً على الأمن والآمنين.

وكم سمعنا أن سجيناً قد خرج من سجنه ، ثم عاد إليه بعد أسبوع بسبب نفس الجريمة التى دخل السجن من أجلها ، لذلك فإن الجرائم قد انتشرت بشكل فظيع فى جميع أنحاء العالم ، وقد أبدى علماء الأخلاق مخاوفهم من هذه الظاهرة المفزعة ، التى تعتبر نكسة للبشرية ما بعدها نكسة .

وذهب الباحثون هنا وهناك ، يتلمسون الدواء الناجع فلم يهتدوا إليه .

وواجبنا نحن المسلمين أن نقدم هذا الدواء لأنفسنا ، ولإخواننا من بنى الإنسان ، حيث أننا نملك هذا الدواء ، والدواء فى العرف الدولى وأوامر الدين ، إنما هو حق مشترك بين جميع أبناء البشر .

ترى . هل كان بوسع رجل عاش وسط الصحراء المقفرة ، فى بيئة تسرى بين جنباتها شريعة الغاب ، أن يقنن هذه القوانين ، ويشرع هذه الشرائع ، التى لم يستطع أساطين الحضارة على مر الزمن أن يصلوا إليها ، ولن يصلوا . . .

إنه تشريع رب العالمين الذى يعلم احتياجات مخلوقاته وخبايا نفوسهم وما يصلحهم وما يضرهم . . .

فى مجال السياسة

قال تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » الحجرات : ٩

تقرر هذه الآية الكريمة أنه إذا تقاتلت طائفتان من المؤمنين فيجب الإسراع إلى الصلح بينهما ، وتهدئة النفوس الغضبى ، حتى لا يتفاقم الأمر وتكون العاقبة وخيمة ، أما إذا ركبت إحدى الطائفتين رأسها وأصرت على اعتدائها ، فيجب حينئذ قتالها حتى ترجع عن غيها ، وهى لا محالة راجعة ، لأنها ستجد جميع القوى فى هذه الحالة ضدها .

وإذا ما تحقق الهدف ورجعت هذه الطائفة إلى رشدها ، فإن المهمة لا تنتهى عند هذا الحد ، بل يجب حينئذ تطييب الخواطر والدعوة إلى الصلح على أساس التصافى والتسامح ، كما يجب العمل على تحقيق العدل ما أمكن لإعطاء كل ذى حق حقه .

أما شريعة الأمم المتمدينة ، أو على الأصح التى تدعى أنها

متمدينة فهى تقوم على الوقوف فى صف المعتدى ضد الضعيف المعتدى عليه ، حتى تقتسم الغنيمة معه . وبذلك عانت الشعوب الضعيفة ويلات الإستعمار ، وصنوف الإستعباد ، كأبشع ماتكون صورة الاستعباد من مخلوق حى لمخلوق حى ، فضلا عن استعباد الإنسان لأخيه الإنسان .

فأى بون يفصل بين هذا الظلم وذلك التشريع السامى !

هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عالماً فى السياسة إلى درجة يسبق بها علماء العالم فى وضع التشريعات ، وهو الذى نشأ أمياً فى بيئة لا تقيم للعدل وزناً ، ولا تعرف للإنصاف طريقاً ... بل شريعتها « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » وليس نصرها للظالم بردعه عن ظلمه كما يقرر الإسلام ، ولكن بالوقوف معه ضد المظلوم عملا بالحمية الجاهلية .

وبعد . فهذه آيات من كثير ، أردت أن أثبت بها أن أحداً لا يستطيع مهما أوتى من قوة العقل ، وسلامة التفكير ، أن يقرر ما جاء فيها من حقائق وأحكام .

لا شك أن وحى الله يتجلى فيها بأوضح صورة ، مما لا يدع

مجالا للظن بأنها صادرة من عند غير الله . . . « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

« إنه لتنزيل ربِّ العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين » الشعراء : ١٩٢ — ١٩٥

« قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » الإسراء: ٨٨

« تم بحمد الله »

شكر

أتقدم بجزيل الشكر وأعمقه إلى كل من عاون على إخراج هذا الكتاب عملياً وأدبياً .

وأخص بالشكر السيد الدكتور على محمد مطاوع عميد كلية طب الأزهر الذى دفعنى إلى الأمام مشجعاً على إخراج هذا الكتاب . والسيد الدكتور محمد نور الدين رائد الشباب بكلية طب الأزهر الذى يعتبر مثلا حياً وقدوة طيبة للشباب الناهض . والسيد الأستاذ محي الدين الألوائى المدرس بجامعة الأزهر الذى فتح الطريق أمامى لتنفيذ فكرتى وكان معى خطوة بخطوة . كما أشكر السيد الأستاذ أحمد حسن غزى مدير المطبعة العالمية الذى زودنى بنصائحه وإرشاداته الأبوية ، كما أسدى جزيل شكرى إلى الأخ الأستاذ محمد عبد اللطيف سالم البلينى الذى قام بالإشراف الفنى وتصحيح الكتاب . والأخ الأستاذ يحي السباعى على روحه الطيبة ومجهوده المشكور . كما أشكر الأخ الفنان محمود كامل الذى قام بتصميم الغلاف بلمساته الفنية .

وأخيراً أشكر جميع العاملين بالمطبعة العالمية .

فهرس

الموضوع — صفحة

تصدير ١

تقريظ ٣

تقديم ٥

مقدمة ٩

الفصل الأول

شبه الملحدين ١٩

لماذا يلحد الناس — ثبات الكون عند هودسن — تباين المخلوقات عند جيبيل — الوسط المناسب والمصادفة ...

الفصل الثانى

مع الفكر ٣١

بين سقراط وأحد الملحدين — ديكارت والذات الكاملة .

الفصل الثالث

مع الفلك ٤٩

القوة المهيمنة — استحالة الخلق بالمصادفة — علاقة الأرض بالكون ... .

الموضوع | صفحة

الفصل الرابع

مع الطبيعة ٦٧
العقل الإلكترونى وعظمة الله — الرادار وعظمة الله ...

الفصل الخامس

مع الكيمياء ٨٥
الماء والقوانين العلمية — المصادفة ونشأة الكون —
تنظيم الهواء ... ...

الفصل السادس

مع علم الأحياء ١٠١
كيف بدأت الحياة — نظرية التطور — إلهام الأحياء —
عاطفة الأمومة — النمل يضرب أروع الأمثلة — الإنسان
آية الإبداع — الروح الصافية ووجود الله ... ...

الفصل السابع

مع القرآن ١٣٥
القرآن والعلوم — وحدة الكون — ميلان محور الأرض —
حقيقة الروح — نقص الأوكسيجين — عجائب السماء
فى مجال التشريع — حد القتل — حد السرقة ١٤٤
فى مجال السياسة ١٥٢
شكر ١٥٥
استدراك ١٥٩

إستدراك

سقطت بعض الـكلمات سهواً من بعض الصحائف وصحة الـكلام كما يأتى :

صفحة ٥٢ سطر ٣ من أسفل : فى قيامها على أبدع الأشكال وأكملها ألا تدل على وجود إله منزه عن الجسمانية حى ، حكيم ، موجود فى كل مكان يرى حقيقة . . .

صفحة ١٠٤ سطر ١٠ : أما المادة فإنها لم تفعل قط أكثر مما تمليه قوانينها فالذرات إنما تطيع قواعد الألفة الـكيميائية . . . .

تصحيح

الخطأ	الصواب	صفحة	سطر
يوجهها	يوجهه	١٤	٧
قالة لتمييز	قابلة لتمييز	٣٤	٤ من أسفل
يحب	يجب	٣٦	١١
شتان ما بين	شتان بين	٦٣	٤
جهارا	جهازا	٧٥	الأول من أسفل
خصيص المهانة	حضيض المهانة	٩٢	٤ من أسفل
كريس موريسون	كريسى موريسون	١٠٤	٦
وحدة اللون	وحدة الـكون	١٣٩	عنوان
وخطرا عضوا	خطرا وعضوا	١٤٦	٤

هـــذا الكتاب

— يحطم تلك الأكذوبة التي تقول : إن البحث العلمي يؤدي إلى الإلحاد .
— يجعلك تستطيع أن تناقش أي ملحد مناقشة علمية مما يؤدي إلى إيمانه بالله .
— يتنقل بك في صورة مشوقة بين المفكرين والفلاسفة وعلماء الفلك والطبيعة والكيمياء والأحياء ، وكبار المخترعين وأساطين العلم ويثبت اعترافهم بوجود الخالق .

* * *

لقد طاف بنا المؤلف مع مختلف العلوم في كون الله متنقلا من محيطاته إلى أفلاكه ومن ذرات مواده إلى عجائب مخلوقاته ، فلا يسع القارىء بعد الانتهاء من قراءته إلا أن يزداد يقيناً بما يحس به بالفطرة من وجود خالق يحبه ويرعاه ...

د . على محمد مطاوع
عميد كلية طب الأزهر

* * *

« العلم في رحاب الله » ... هذا لون جديد من البحث لم تعهده المكتبة العربية إلا قليلا . وهذا الكتاب الذي يضعه المؤلف المجتهد الناشىء أمام القارىء العربي صغير حجمه ، كبير نفعه . . .

محي الدين الألوائي
المدرس بجامعة الأزهر

* * *

إنني أقدم للأسرة الطبية أديباً جديداً وإن كان بعد ما يزال طالباً ولكن العمل الذي أنتجه أكبر من أن يقوم به أمثاله .

وإنني أتعشم أن يكون هذا الكتاب بداية لحياة أدبية وعلمية لهذا الكاتب الناشىء .

د . محمد نور الدين
مدرس التشريح بجامعة الأزهر

الثمن ٢٠ ق

المطبعة العالمية بالقاهرة